

إيتالو كالفينو

مختارات قصصية



علي مولا

قصص وروايات



ترجمة سيرة القصير

منة كتاب وكتاب هدية نورة الشباب.. مشروع "نورة المعرفة للجميع"

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

١٥٢٥٤٩

مختارات
قصصية

اسم الكتاب: مختارات قصصية
المؤلف: ايتالو كالفينو
المترجم: سمير القصير
الطبعة الاولى ٢٠٠٠-٢ / ١٩٩٤
جميع الحقوق محفوظة للناشر
صحارى للصحافة والنشر
الاشراف الغني: انتشال هادي
لوحه الغلاف: ازاد ناناكلي



P.O BOX: 701/235 ·
1399, BUDAPEST, HUNGARY
☎: (0 361) 1732236
Telex: 223237 SAHARA
FAX: (361) 1188149 SAHARA

إيتالو كالفيينو

مختارات
قصصية

إلى ازدهار
ومايا وهمسة ومهيار

سمير

ايتالو كالفينو ITALO CALVINO (1923-1985)

يعتبر ايتالو كالفينو من أبرز الشخصيات المهمة والفريدة في الأدب الإيطالي المعاصر. روائي وناقد وصحفي لعب دوراً مهماً في الحياة الفكرية الإيطالية. وقد قال عنه ب. فورنل في المجلة الأدبية: «إن إيتالو كالفينو يصيغ عملاً لبقاً ومرهفاً ذا حدود واضحة، ضمن أشكال وظواهر من الخيال المبدع والمتنوع، يقترن على الأخص بمراحل حياة مؤلفه. وبإمكاننا اليوم أن نقيس إلى أي حد يكون فيه هذا العمل محاولة لأخذ صيغة روائية. إنها حيازة ترفض كل المظاهر التي تقوم على اللعب والسعادة بالكتابة بقدر ما أن اللعب والسعادة من المواضيع الرائعة للعمل والتفكير والتأمل».

ولد ايتالو كالفينو في الخامس عشر من تشرين الأول - أكتوبر عام ١٩٢٣ في سانتياغو لاس فيغاس بجزيرة كوبا لأب كان استاذاً في الزراعة وأم كانت استاذة في علم النباتات، وبعد ولادته بسنتين عاد مع والديه إلى إيطاليا، الوطن الأم، ليستقر معهما في مدينة سان ريمو حيث أمضى فترات طفولته ومراهقته وأولى سني شبابه وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

وقد حالف الحظ ايتالو كالفينو بولادته لعائلة تميل إلى العلم الذي كان بالنسبة لها أكثر بكثير من مهنة. وكان ميلها له يتسم بمبادئ الأخلاق والوجود، وتأثر بوالدته التي كانت تعشق النباتات والتي بقيت تدير معهداً زراعياً شهيراً في سان ريمو حتى نهاية حياتها، وتعلم منها معرفة نسيج الطبيعة المعقدة والاعتقاد بما يمكن أن تعطيه الملاحظة وتؤمنه.

وعند بلوغه سن العشرين التحق بألوية غاريبالدي، وهي ألوية المقاومة الوطنية الإيطالية، وقاتل في صفوفها ضد الجيش الألماني والفاشية، وفي العام

١٩٤٥ انتقل إلى مدينة تورينو الإيطالية، مدينة البروليتاريا والرأسمالية الإيطاليتين، ليعمل في صحيفة «الأونيتا» لسان حال الحزب الشيوعي الإيطالي، التي سرعان ما تركها ليعمل لدى دار النشر الإيطالية المعروفة باسم «ايناودي». وكان قد تخرج اثناء ذلك من جامعة تورينو مجازاً بالآداب بأطروحة عن «جوزيف كونراد».

في العام ١٩٤٧ نشر كالفينو روايته الأولى «درب أعشاش العنكبوت» وكانت أول ما نشره على الرغم من أنه كان قد بدأ الكتابة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حيث كتب قصصاً قصيرة استوحاها من روح المقاومة الوطنية ضد الفاشية. وقد تناولت روايته الأولى، التي حملت سمات الواقعية الجديدة، المقاومة التي شاركت فيها عائلته ضد الفاشية، وقدم لها الكاتب والشاعر الإيطالي «شيزاره بافيزه» الذي كان أول المهتمين بكالفينو أدبياً.

في تورينو وجد كالفينو المناخ الملائم ليخطو أولى خطواته على طريق الأدب، فكان له أن التقى أيضاً المفكر والأديب الإيطالي «ايليو فيتوريني» ليثمر هذا اللقاء عن تأسيس مجلة «المنابو» التي لعبت دوراً فعالاً في الأوساط الثقافية الإيطالية خلال مرحلة الستينات.

في العام ١٩٤٩ خرجت مجموعته القصصية القصيرة الأولى بعنوان «وأخيراً يأتي الغراب». وهي مجموعة قصص تدور حول موضوع المقاومة، اتبعتها عام ١٩٥٢ بأولى روايات ثلاثيته المعروفة باسم «أجدادنا»، التي شملت: «الفيسكونت المشطور» ١٩٥٢ و «البارون الجاثم» ١٩٥٧، و «الفارس الوهمي» ١٩٥٩، وظهرت من خلالها قوة موهبته وقدرته على تصوير الأساطير والتطبيق المغرق في الوصف الخيالي، وقد أكد على هذا الأسلوب أيضاً في مجموعته القصصية «الحكايا الإيطالية» التي كتبها خلال فترة إنجاز ثلاثيته الرائعة ونشرها عام ١٩٥٦ مخلفاً وراءه الطريق أو الأسلوب المباشر المستقيم والسهل ظاهرياً ليدخل في مجموعة من الأساليب والرموز الغنية بالمعاني الأخلاقية والإنسانية، وقد كانت تجربته الروائية والأدبية قد اغتنت بعد أن كتب عدة مجموعات من القصص القصيرة ومنها «غيمة الضباب والدخان» التي طبعت عام ١٩٥٨.

في العام ١٩٦٠ طالعت «المنابو» قراءها يبحث مطول كتبه كالفينو بعنوان

«بحر الموضوعية» بدا فيه واضحاً أن كالفينو قد غير مسيرته أسلوبه الأدبي وخطه الروائي وقد ظهر هذا التغيير واضحاً في مجموعتيه القصصيتين «ماركوفالدو - أو الفصول في المدينة ١٩٦٣» - «ويوم من أيام مستقص» وهذه الأخيرة كانت تطرح وجهة نظر خلاصتها مراجعة لما مضى ووعد بحلول فكرية جديدة. وفي الحقيقة، بقي كالفينو أكثر من عشرين سنة باحثاً ليتأكد من الحقائق الجديدة في العالم والحياة والأدب وليلمح في دقائقها وليمنح الحياة لخط أدبي مدهش يعبر عن موهبة وعبقرية عظيمة.

مع حلول العام ١٩٦٤ ترك كالفينو إيطاليا ورحل برفقة زوجته وابنته الوحيدة «جوفانا» إلى باريس حيث كانت رؤيته الجديدة للعالم، وحيث عالمه الخيالي المتجدد فكتب أنثي «الكونيات ١٩٦٧» و«قلعة الأقدار المتصالبة»، و«المدن اللامرئية» ١٩٧٢. وبعد ذلك بسبع سنوات عاد إلى إيطاليا ليستقر في روما ويكتب في العديد من الصحف والمجلات.

في عام ١٩٧٩ نشر كالفينو كتابه «فيما لو كان في ليلة شتوية مسافراً...» وأظهر من خلاله موهبته وقدرته على التحليل والتركيب، وأكدها مجدداً مبرهنناً على أن باستطاعة الأدب أن يفعل ما لا يمكن فعله. وكان ذلك أول ميزان من موازين تأملاته وأمانته وشكوكه أيضاً. وأية شكوك تلك؟ أهي شكوك انسان عقلاني؟ أم رجل يعتقد بموضوعية التأمل الدقيق؟ لا بد من القول إن تأملاته الشكوكية تلك كانت ذات طبيعة عقلانية وجدت أنه من الضرورة بمكان اللجوء إلى تعظيم الطرائق والنتائج في الأدب. مع هذه الوقفة بدأ كالفينو مرحلة بحث عن العالم المقلوب، هذا البحث الذي انقطع مع ظهور كتابه «بالومار» وهو آخر أعماله الروائية القصصية ذات النزعة التأملية التي نشرت أثناء حياته، وقد عرف هذا الكتاب بأنه يشكل بحد ذاته سيرة كالفينو الذاتية بكل وضوح.

بعد وفاته في ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥ قامت زوجته بجمع ثلاثة فصول من كتاب كان قد شرع بكتابته قبل أن توافيه المنية ولم يتمكن من إتمامه. وقد تحدثت فصول الكتاب المذكور عن ثلاثة من حواس الانسان وهي الشم، الذوق والسمع وقد خرج بعنوان «تحت الشمس المرقطة».

هذه القصص

لقد تم اختيار مجموعة القصص القصيرة هذه من عدة مجموعات قصصية صدرت للكاتب الايطالي خلال فترات مختلفة، ومتباعدة أحياناً، من حياته الأدبية. ولعله من المفيد أن نعرض ولو بشكل موجز عليها ليتسنى للقارئ معرفة بعض الخطوط العامة التي نسجها كالفينو في تلك المجموعات.

١ - **ماركو فالدو**: في العام ١٩٦٣ جمع كالفينو ضمن كتاب واحد عشرين قصة قصيرة ألفها خلال سنوات مختلفة وأطلق عليها اسم «ماركو فالدو، أو الفصول في المدينة». هذا الكتاب كان موجهاً في بداية الأمر إلى جمهور الشبيبة لكن كالفينو فكر في لحظة ما واستنتج أن باستطاعة الكبار أيضاً تذوق الكتاب.

وحول الكتاب قال كالفينو: وسط مدينة الاسمنت والاسفلت (ويقصد بها تورينو) يبحث ماركو فالدو عن الطبيعة. ويتساءل، ولكن أما زال للطبيعة من وجود؟ فالطبيعة التي يجدها أمامه هي طبيعة مشوهة متصالحة مع الحياة المزيفة. وبطل قصصنا هذه شخص حزين يعبر عن حزنه وألمه ويأسه أيضاً من خلال قصص نسجت بعناية محافظة في نفس الوقت على الأمانة والوفاء للبنية القصصية الكلاسيكية، تلك البنية الخاصة بالقصص القصيرة المزينة بالصور والتي نراها في الصحف أو المجلات المخصصة للأطفال والشباب.

لقد أُعتبر ماركو فالدو حينها كآخر تجسيد لمجموعة من الأبطال طيبي القلب، الفقراء - والشياطين على طريقة شارلي شابلن مع خاصية أن واحدهم هو - رجل الطبيعة المتوحش الطيب - المنفي إلى المدينة الصناعية. إن كالفينو وبعد أن رأى الانسجام الطبيعي بين الطبيعة والانسان والتاريخ قد غرق في بحر الاسمنت وأنهار مساحيق التنظيف وغيرها...، وصف تحول الانسان إلى نوع من الشبح الحالم بنوع من الشفقة المبتسمة، عالماً ومدركاً في نفس الوقت أنه من غير الضروري ذرف الدموع حزناً على ماركو فالدو وإنما أن الاشارة باصبع الاتهام إلى أولئك الذين خربوا على ماركو فالدو طبيعته وانسجام حياته معها. إن هذا بحد ذاته سيبقى رغم ذلك محض اتهام عقيم. ومن المفيد ذكر ما قاله الناقد بيترو شيتاتي الذي اعتبر مع نقاد آخرين، أن كالفينو أخفى خلف تلك الصور والخيال المزهرة صورة شخصه الحزينة.

٢ - بالومار: في بداية السبعينات خرج كالفينو على قراء صحيفة «الكورييري ديللا سيرا» التي كان يتعاون معها، بشخصية جديدة أسماها «بالومار» وجعل منها بطلاً لمجموعة من القصص القصيرة أشبه بالتأملات الفكرية، إن تلك الشخصية تشبه إلى حد ما مركز رصد فضائي. وقد توقفت تلك القصص فترة لتظل على القراء من على صفحات صحيفة «لاريبوبليكا» لتخرج بعدئذ ضمن كتاب واحد حمل اسم «بالومار».

إن بالومار هذا شخصية «فانتازية» خرجت من تلك الفانتازية التي تثير خيال كالفينو. بالومار هذا يقترب من البحر ليقراً موجة أو سيف الشمس... الخ إلا أنه سرعان ما تنتابه دهشة المعرفة بأنه لم ير شيئاً، لا موجة ولا سيفاً... وأنه كان متسرعاً. يتنبه أيضاً إلى أن كل ذلك كان يجري ضمن ساحة خياله وعقله الذي يظهر أساليب وطرائق جديدة للملاحظة.

إن ضروب الإخفاق في التصنيف وتفكيك الرموز لدى بالومار أمام أنسجة الواقع الاجتماعي والطبيعي الحقيقية تشكل الموضوع الأخاذ والندهش في المجموعة، والتي يبدو فيها كالفينو ميتافيزيقياً أكثر من أي وقت مضى، إذ سبق له أن بدا بمظهر الفيلسوف ضمن كتاباته السابقة، إلا أنه هنا جعل الغلبة للوصف سواء كان هذا الوصف لموجة أو لشاطئ أو لبلستان. وصاحبنا بالومار هذا لا يفعل شيئاً أكثر من المراقبة والوصف ويقدم عمليات تساؤل تمهيدية ومتزامنة.

إن شيطان التساؤل يسيطر عليه. فالأشياء والأوضاع تفرض نفسها على نظرتة وتتجاوز مع عينيه في تحركهما المندesh والفضولي بنوع ما من قصر النظر. وتتشارك معها وتنفصل عنها. ثم إن هذه الأشياء والأوضاع تنفذ إلى غيظ وعيه. وتثب في النهاية إلى بنية دماغه ونظام تفكيره وعند هذه النقطة يبدأ تساؤله عن لغز التوافق ما بين الكون والانسان، ما بين الطبيعة واللغة الانسانية، ما بين وحدة الأنا وتعددية الواقع. وبالطبع فإن بالومار لا يعرف أنه يبحث عن هذه الرقائق الفلسفية والميتافيزيقية أو الطبيعية فقط وإنما يتصرف وكأنه عارف بها.

٣ - أخيراً يأتي الغراب:

وضع كالفينو في هذه المجموعة القصصية أغلب القصص القصيرة التي

كتبها حتى العام ١٩٤٩، تاريخ صدور المجموعة. وعلى سبيل المثال فإن قصته «الذهاب إلى مقر القيادة» كانت قد نشرت في صحيفة «بوليتكنيكو» التي يديرها الأديب الإيطالي «إيليو فيتوريني»، لم يختلف أسلوب كالفيينو في هذه النصوص عن أسلوب كتاباته الأولى سوى في بعض التركيز وخاصة على مواضيع المقاومة والقسوة الضرورية في ظروف الحرب وذلك من خلال الإشارة السريعة، الجافة، وغير الرحيمة. وزيادة على ذلك فإنه في قصة «الذهاب إلى مقر القيادة» يبدو وكأنه يقبع في مكان آخر بعيد عن حركة بطلي القصة، فهو ينظر إليهما ويزودنا بكلمات البطلين، يسجل حركاتهما من الخارج وعند النهاية فقط، وبنوع من تغيير الإتجاه ذي المغزى، نرى أن كالفيينو يضع نفسه في رأس الضحية، الجاسوس الفاشي الذي أعدمه رجل المقاومة الذي أخفى حتى النهاية عن المحكوم بالموت معنى نزهتهما عبر الغابات.

هذه هي خاتمة القصة، وبلا زيادة كلمة واحدة عليها، ولا حكم لكنه يبقى حكماً ضمنياً بينما يموت الجاسوس الفاشي فإنه يفكر «يعتقد أنه قتلني، وعلى العكس من ذلك فأنا حي...» إن الشر ينتصر حتى بعد أن أقتل..

إن الدخول في بسيكولوجية الشخصيات، وكذلك التنقيب في ضوء وبريق الصور المتتابعة في دماغ شخص يتهيأ للاختفاء إلى الأبد، لا يدخل ضمن تقنية التأليف لدى كالفيينو بل يخالفها. فهو بحاجة للمسافة، للبعد للتوسط بينه وبين شخصياته مثل عدسة أو منظار.

وإذا ما تساءلنا عن معنى هذا التدخل في «بسيكولوجية» شخص يموت. (بغض النظر عن الإحياءات الروائية التي تنبثق عن المؤلفات بين بعض الطروحات) نجد أن كالفيينو ذا العشرين عاماً كان قد وجد في نفسه نوعاً من التضامن البيولوجي مع الضحية الأشبه ما يكون بتأنيب الضمير لكونه غير متحد مع قدره هو بالذات، وفي نفس الوقت مع دواعي الواجب لدى من يناضل من أجل قضية عادلة، لا يمكن أن تكون إطلاقاً موضوع شك.

إن المقصود هنا هو نوع من التعارض الوجداني كي لا نقول الازدواجية، الذي يصفه كالفيينو دون أن يشحنه بالبلاغة.

لكن الشيء الأكثر مرارة نراه في قصة: «أخيراً يأتي الغراب». حيث نجد

شاباً فتياً يرافق مجموعة من رجال المقاومة الوطنية بعدما التقاهم صدفة وأعجبوا برماياته.

يبدأ رحلته معهم متابعاً رماياته على العصافير والأرانب وكيزان الصنوبر... كل ذلك وهو يشعر بحالة من السرور العميق. ثم نجد عدواً يختبئ خلف كتلة صخرية يعتقد أن الصبي الذي لاحقه يسدد عليه بينما يتابع هذا الأخير مهارته كصياد. فالعدو بالنسبة له ليس أكثر من هدف من بين الأهداف التي يسدد إليها. والمقصود هنا قتله لكن بنفس الهدوء واللامبالاة التي يصطاد فيها عصفوراً دورياً. فجأة يظهر الغراب الذي يخلق في السماء فوق العدو «وكالفينو يسمي العدو هنا بشكل عام بالجندي» الذي يمني نفسه بأن يركز الصبي انتباهه على الغراب. يطلق الصبي النار لكن الغراب لا يقع. فلا يجد الجندي تفسيراً لذلك إلا بأن الصبي ربما لم ير الغراب. فينهض ويشير إلى الضحية وفي تلك اللحظة تصله طلقة تستقر وسط نسر كان قد طرزه على سترته.

وفي هذا المخرج ذي الحدين «النسر المفترض» و «الغراب الحقيقي» يمكننا أن نتابع التناقض بشكل رمزي. الحقيقة «العارية» للصبي في مواجهة شارة الجندي المصطنعة والمضحكة.

أطفال بابو ناتاله (*)

من مجموعة ماركو فالدو

ليست هناك فترة من العام أكثر ظرافة وطيبة بالنسبة لعالم الصناعة والتجارة من فترة أعياد الميلاد والأسابيع التي تسبقها. إذ تتصاعد من الشوارع أصوات موسيقى القرب المزغردة، أما الشركات المقلدة، التي كانت حتى البارحة مشغولة بحساب حجم مبيعاتها وأرباحها بهدوء، فإنها تفتح قلبها للمشاعر الإنسانية والابتسامة. ويصبح التفكير الوحيد لمجالس الإدارة الآن هو إشاعة البهجة في قلب أخيم الإنسان، بإرسال الهدايا المرفقة برسائل التهنئة سواء إلى أخواتها من الشركات أو إلى الأشخاص العاديين، وتشعر كل شركة أن من واجبها شراء كمية كبيرة من البضائع التي تنتجها شركة ثانية لتقدم هداياها إلى الشركات الأخرى، هذه التي تشتري بدورها منتجات شركة أخرى لتقدمها كهدايا للشركات الأخرى. وهكذا فإن نوافذ مكاتب الشركة تبقى مضاءة حتى وقت متأخر من الليل، ومنها على الأخص نوافذ المخازن حيث يتابع العاملون عملهم لساعات إضافية بتغليف العلب والصناديق. وإلى ما وراء زجاج النوافذ المغلقة بالخيار يتقدم على الأرصفة المغطاة بطبقة من الجليد نافخو القرب البارلين من جبال قائمة غامضة ويتوقفون عند تقاطعات مركز المدينة مبهورين قليلاً بالأضواء الكثيرة وواجهات المحلات المزينة بإفراط، ينفخون، محنيي الظهر، في الاتهم الموسيقية. وعند سماع ذلك الصوت يهدأ تنافس المصالح القوي بين رجال الأعمال ويخلون الساحة لمنافسة جديدة، لمن يقدم الهدية الأكثر تأثيراً وابتكاراً وبالشكل الأكثر أناقة.

(*) بابو ناتاله: هو اسم بابا نويل لدى الإيطاليين.

وفي شركة (سباق) اقترح مكتب العلاقات العامة في تلك السنة أن يتم تسليم الهدايا المرسله إلى الأشخاص من ذوي الشأن المهم في بيوتهم من قبل رجل يرتدي ملابس (بابو ناتاله).

وقد حظيت الفكرة بالموافقة الإجماعية للمدراء. فتم شراء ثياب زينة بابو ناتاله كاملة، اللحية البيضاء والقبعة والمعطف الأحمر وفي طرفيهما الفراء الأبيض، والجزمة الطويلة. وبُدىء بتجربتها لمعرفة أي من المراسلين يناسبه ارتداؤها، لكن أحدهم كان قصير القامة لدرجة أن اللحية لامست الأرض، وواحد آخر سمين جداً لدرجة لا يمكنه ارتداء المعطف، وآخر كان شاباً يافعاً، وعلى العكس منه كان الأخير عجوزاً جداً لا جدوى من جعله يتنكر بثياب بابو ناتاله.

وبينما كان رئيس مكتب شؤون العاملين يطالب مختلف الأقسام أن يرسلوا إليه أشخاصاً آخرين يمكن أن يكونوا «بابو ناتاله» المحتمل، فإن المدراء المجتمعين كانوا يتدارسون تطوير الفكرة. فمكتب العلاقات الانسانية يريد أن يتم تسليم هدايا عيد الميلاد إلى العمال من قبل بابو ناتاله خلال حفل جماعي، أما المكتب التجاري فإنه يريدهم أن يقوموا أيضاً بجولة على المحلات التجارية، وكان جل اهتمام مكتب الدعاية ينحصر بإظهار اسم الشركة بشكل واضح، وحبذا لو ثبتت أحرف س. ب. أ. ف على أربع بالونات مربوطة بخيط.

كان الجميع مأخوذين بهذا الجو النشيط والودى الذي انتشر في المدينة المبهجة والمنتجة. فلا شيء أجمل من أن تشعر حولك بجريان فيض من البضائع المادية برفقة الخير الذي يريده كل شخص للآخرين وهذا، وعلى الأخص هذا هو الشيء المعتبر - مثلما يُذكر صوت (الفيرولي، الفيرولي) المنبعث من القرب.

وفي المخزن كان الخير - المادي والروحي - يمر عبر يدي ماركو فالدو بقدر ما هناك من بضائع يجب أن تُحمّل وتنزل. ولم يكن فقط التحميل والتنزيل الشيء الوحيد الذي يخصه، فقد كان يعنيه أيضاً قسم من هذا العيد العام، مفكراً أيضاً بأن هناك في الحقيقة علبة واحدة، معدة له من قبل مكتب العلاقات الإنسانية، تنتظره في تلك المتاهة بين مئات آلاف العلب. حساباً ما

ينتظره عند نهاية الشهر حيث «راتب الشهر الثالث عشر»^(*) وأجر الساعات الإضافية وسيكون باستطاعته مع تلك النقود أن يجري هو أيضاً إلى المحلات ليشترى ويشترى ويشترى كي يُهدي ويهدي ويهدي حسبما تفرضه أخلص مشاعره وكذلك المصالح العامة للصناعة والتجارة.

دخل رئيس قسم شؤون العاملين إلى المخزن وبيده لحية مستعارة وقال لماركو فالدو:

- هيه، أنت. جرب قليلاً لنرى كيف تبدو بهذه اللحية، وأردف - رائع! أنت بابو ناتاله. تعال إلى فوق، أسرع. ستكون لك جائزة خاصة إذا ما استطعت القيام بإيصال خمسين إرسالية إلى المنازل هذا اليوم.

وهكذا راح ماركو فالدو، المتنكر بلباس بابو ناتاله، يجتاز المدينة على مقعد دراجته الشاحنة الصغيرة المحملة بالعلب المغلفة بورق مبرقش، والمربوطة بأشرطة جميلة والمزينة بأغصان صغيرة من الدبق والبهشثة. ومع أن اللحية القطنية البيضاء كانت تسبب له حكة إلا أنها تلزم لتحمي حنجرته من لفحات الهواء البارد.

في أول جولة قام ماركو فالدو بزيارة منزله لأنه لم يكن باستطاعته أن يقاوم رغبته بمفاجأة أطفاله، وفكر: سوف لن يتعرفوا إليّ في البداية، من يدري كم سيضحكون بعدها!.

وجد الأطفال يلعبون على الدرج فالتفتوا إليه قليلاً قائلين: مرحباً بابا.

أحس ماركو فالدو بالخيبة فقال: لكن... ألا ترون ماذا ارتديت. فقال له بيتروتشو: وما عساک أن تكون مرتدياً؟ زي بابو ناتاله، أليس كذلك؟

- وهل عرفتموني فوراً؟

- وهل يلزم الكثير! لقد تعرفنا أيضاً على السيد سيجيز موندو الذي كان متنكراً أفضل منك!

- وعلى صهر حارسة بوابة العمارة!

- وعلى والد الطفلين التوأم اللذين يسكنان في مواجهتنا!

(*) يتقاضى الإيطاليون عند نهاية كل عام مرتباً إضافياً يدعونه مرتب الشهر الثالث عشر.

– وعلى عم أرنستينا صاحبة الجدائل!

فسأل ماركو فالدو: وهل يرتدون جميعهم ملابس بابو ناتاله؟ وبدت على صوته خيبة الأمل ليس فقط لفشله في مفاجأة عائلته وإنما أيضاً لأنه شعر بأن نفوذ شركته قد أصيب بشكل ما.

فأجابه الأطفال: أف، بالطبع مثلما أنت بالضبط. بلباس بابو ناتاله كالعادة وباللحية المستعارة.

وأداروا له ظهورهم وشرعوا يلعبون من جديد بألعابهم.

إذ حدث أن طرأت الفكرة نفسها لمكاتب العلاقات العامة في شركات عديدة في وقت واحد، فقامت بتجنيد أكبر عدد من الأشخاص، أغلبهم من العاطلين عن العمل والمتقاعدين والباةة الجوالين كي تقوم بإلباسهم المعطف الأحمر واللحية القطنية البيضاء. وبعد أن استمتع الأطفال في المرات الأولى بالتعرف على معارفهم وأشخاص الحي تحت تلك الملابس التنكرية فقد اعتادوا بعد ذلك بقليل على تلك اللعبة ولم يعد أحد منهم لينشغل بها. ويمكن القول أن اللعبة التي كانوا منشغلين بها تمتعهم كثيراً إذ أنهم اجتمعوا على قرص الدرج جالسين على شكل دائرة، سألهم ماركو فالدو: هل يمكنني أن أعرف أي مؤامرة تدبرون؟

– دعنا بسلام يا أبي، علينا أن نحضّر الهدايا.

– هدايا لمن؟

– لطفل فقير. علينا أن نبحث عن طفل فقير ونقدم له الهدايا.

– ومن قال لكم ذلك؟

– هذا موجود في كتاب القراءة.

كاد ماركو فالدو أن يقول لهم: «أنتم أنفسكم الأطفال الفقراء!» لكنه خلال ذلك الأسبوع كان مقتنعاً للغاية باعتبار نفسه أحد سكان أرض النعيم حيث الجميع يشترتون ويستمتعون ويتبادلون الهدايا، ولم يكن يبدو له التحدث عن الفقر أمراً ينبع من التربية الجيدة ولذلك فقد فضّل أن يصرح لهم:

– لم يعد هناك من وجود لأطفال فقراء!

فنهض ميكيلينو وسأله: ألهدا يا أبي لا تحمل إلينا الهدايا؟ فأحس ماركو

فالدو بقلبه ينقبض وقال بسرعة: عليّ الآن أن أكسب أجر العمل الإضافي وبعد ذلك سأجلب لكم الهدايا. فسأله فيليبوتو:

– كيف ستكسب ذلك؟

فأجابه ماركو فالدو: بإيصال الهدايا.

– لنا؟

– لا، لأناس آخرين.

– ولماذا ليس لنا؟ سيكون ذلك أسرع بالنسبة لك.

حاول ماركو فالدو أن يشرح لهم فقال: لأنني لست بابو ناتاله قسم العلاقات الإنسانية، وإنما أنا بابو ناتاله قسم العلاقات العامة هل فهمتم؟

– لا.

وبما أنه كان يرغب بطريقة ما بالحصول على عفوهم لأنه حضر إليهم فارغ اليدين فكر أن يأخذ معه ميكيلينو ليرافقه في جولة تسليم الهدايا فقال وهو يمتطي مقعد دراجته الشاحنة: صبراً. إذا كنت مطيعاً بإمكانك أن تأتي معي لتري أباك وهو يحمل الهدايا إلى الناس. فقال ميكيلينو: هيا بنا. ربما سأجد طفلاً فقيراً. وقفز ممسكاً بكتفي والده.

وفي شوارع المدينة لم يكن ماركو فالدو يقابل إلا رجال «بابو ناتاله» آخرين حمراً وبيضاءً مطابقين له بالضبط وكلهم يقودون شاحنات صغيرة، أو دراجات ذات شاحنة، أو يفتحون أبواب المحلات التجارية للزبائن المحملين بعلب الهدايا ويساعدونهم على نقل مشترياتهم إلى السيارة. وكانت تبدو على جميع هؤلاء الرجال «بابو ناتاله» هيئة تركيز وانشغال وكأنما هم العاملون على خدمة وصيانة الآلات الضخمة للأعياد.

مثلهم كان ماركو فالدو منهمكاً ينتقل من عنوان إلى آخر، مكتوب في القائمة. ينزل عن مقعده ويخرج العلب من شاحنته فيأخذ واحدة منها ويقدمها لمن يفتح له الباب مردداً جملة:

– «شركة سباف تتمنى لكم عيد ميلاد سعيد وسنة طيبة» ويأخذ

الإكرامية.

يمكن أن تكون الإكرامية معتبرة أيضاً. وباستطاعة ماركو فالدو أن يقول عن نفسه إنه راضٍ. لكنه كان يشعر بأن شيئاً ما ينقصه. ففي كل مرة وقبل أن يقرع جرس الباب، وخلفه ميكيلينو يتبعه، كان يتذوق مسبقاً الدهشة التي ترتسم على وجهه من يفتح له الباب لأنه سيجد نفسه أمام بابو ناتاله شخصياً، وكان ينتظر منهم ابتهاجاً وفضولاً وعرفاناً بالجميل. لكنه استقبل في كل مرة مثلما يستقبل ساعي البريد الذي يحمل الصحيفة كل يوم.

قرع جرس باب بيت فخم. فتحت له المربية وقالت:

– أه، علبة أخرى أيضاً، من أرسلها؟

– تتمنى لكم شركة سباف....

– حسناً، أحملها إلى هنا - وسبقت بابو ناتاله خلال ممر مليء بأكوام من السجاد والأواني الصينية المزخرفة. وتبع ميكيلينو أباه بنظرات مبهورة. ثم فتحت المربية باباً من الزجاج ودخلا إلى قاعة ذات سقف عالٍ جداً لدرجة أن شجرة بلوط كبيرة وضعت فيها، كانت شجرة عيد ميلادٍ مضاءة بكرات زجاجية من مختلف الألوان علقت على أغصانها الهدايا والحلويات من كل الأصناف والأشكال ومن السقف تتدلى ثريات ثقيلة من الكريستال، وقد تعلقت الأغصان العلوية بالأقراط المتلألئة. وفوق طاولة ضخمة وضعت الأطعم الكريستالية والفضية وعلب الفواكه المجففة وصناديق المشروبات. أما الألعاب المبعثرة على سجادة كبيرة فقد كانت كثيرة وكأنها في محل بيع للألعاب، وعلى الأخص الألعاب الإلكترونية المعقدة وموديلات سفن الفضاء. وفي زاوية خالية على تلك السجادة كان هناك طفل منبطح على بطنه في حوالي التاسعة من العمر ذو هيئة مستاءة وضجرة يتصفح كتاباً مصوراً وكأن كل ما حوله لا يعنيه. قالت المربية: جان فرانكو، انهض يا جان فرانكو. ألا ترى أن بابو ناتاله قد عاد مع هدية أخرى؟

– ثلثمائة وإثنتا عشر - قال الطفل متنهداً دون أن يرفع عينيه عن الكتاب وأردف: ضعها هناك.

فقالت المربية: إنها الهدية رقم ثلثمائة وإثنتا عشر التي تصله إن جان فرانكو طفل شاطر بالحساب ولا يخطئ العدَّ أبداً، إنه مولع جداً بالحساب.

غادر ماركو فالدو وميكيلينو المنزل منسولين على أطراف أصابعهما. سأل ميكيلينو أباه: بابا، هل هذا الطفل طفل فقير؟ كان ماركو فالدو مشغولاً بإعادة ترتيب حمولة شاحنته فلم يجب على الفور. لكنه أسرع بعد لحظة بالاحتجاج: فقير؟ ماذا تقول؟ هل تعلم من هو أبوه؟ إنه رئيس اتحاد إنماء مبيعات أعياد الميلاد! إنه المدير الأمر.

وتوقف عن الكلام لأنه لم ير ميكيلينو، فصاح:

– ميكيلينو، ميكيلينو! أين أنت؟ لقد اختفى. وفكر «لا بد وأنه كان ينظر حوله ورأى بابو ناتاله آخر يمر من هنا فظنه أنا ولحق به».

تابع ماركو فالدو جولته وهو قلق نوعاً ما على ولده ولم يكن يرى حلول الساعة التي يعود فيها إلى البيت.

وفي البيت وجد ميكيلينو مع إخوته على أحسن حال.

– إنتبه إليّ قليلاً، أنت. أين ذهبت واختفيت؟

– إلى البيت لأحمل الهدايا... أجل الهدايا لذلك الطفل الفقير...

– أوه! من؟

– ذلك الطفل الذي كان حزيناً للغاية... الطفل الموجود في تلك الفيلا حيث شجرة عيد الميلاد.

– إليه؟ ولكن أي هدايا يمكنك أن تقدمها له أنت؟

– أوه، لقد أعدنا له جيداً... ثلاث هدايا مغلقة بورق فضي.

وتدخل أخواه: لقد ذهبنا جميعنا معاً لنحملها إليه! ليتك رأيت مدى فرحته بها!

فقال ماركو فالدو: تصوروا! كان بحاجة لهداياكم بالضبط كي يكون مسروراً!

– أجل، أجل فرح بهدايانا... لقد هرع على الفور ليمزق الورق ويرى ماذا كانت....

– وماذا كانت؟

– الأولى مطرقة: مطرقة خشبية ذات رأس ضخم مدور.

– وهو؟

– قفز فرحاً بها وتناولها وبدأ باستعمالها!

– كيف؟

– لقد كسّر كل الألعاب! وكل الكريستال! ثم تناول الهدية الثانية.

– وماذا كانت؟

– مقلع حجارة. كان عليك أن تراه وترى مدى سعادته به لقد قصف به كل الكريات الزجاجية المعلقة على شجرة الميلاد ثم انتقل إلى الثريات.

– كفى، كفى لا أريد سماع المزيد! ... الهدية الثالثة؟

– لم يعد لدينا شيء نهديه له. وهكذا فإننا غلفنا له ضمن ورقة فضية علبة كبيرة من علب الكبريت التي تستخدم في المطبخ. وكانت تلك الهدية هي التي أسعدته أكثر من غيرها إذ أنه قال: «إنهم لا يدعوني أئس الكبريت إطلاقاً!» وبدأ باشعالها،... و....

– و...؟

– أضرم النار في كل شيء.

صرخ ماركو فالدو وقد غرز يديه في شعره وراح يشده: لقد خرب بيتي.

وفي اليوم التالي شعر ماركو فالدو عندما حضر إلى الشركة بتكاثف العاصفة فارتدى ثياب بابو ناتاله بسرعة، بسرعة وحمل على شاحنته علب الهدايا التي يجب تسليمها مندهشاً من أن أحداً لم يقل له شيئاً بعد. إلى أن رأى ثلاثة من رؤساء الأقسام قادمين نحوه وهم رئيس قسم العلاقات العامة، الدعاية، والمكتب التجاري.

فقالوا له: قف! أفرغ كل شيء قوراً!

فقال ماركو فالدو لنفسه وقد كان يتوقع أن يجد نفسه مسرحاً من عمله:

– ها نحن قد وصلنا إلى ذلك!

قال له رؤساء الأقسام: بسرعة! من اللازم أن نستبدل العلب... لقد افتتح اتحاد إنماء المبيعات في عيد الميلاد حملة الترويج للعبة المدمرة! فعلق أحدهم: هكذا فجأة... كان بإمكانهم أن يفكروا بذلك مسبقاً...

- إنها اكتشاف فجائي للرئيس - شرح أحدهم - يبدو أن ابنه قد تلقى بعض الهدايا من الألعاب المتطورة جداً وأعتقد أنها يابانية. ولأول مرة رآه يتلهى بها مستمتعاً. وأضاف الثالث: إن أهم ما في الأمر هو أن هذه الهدية المدمرة تصلح لتدمير الألعاب ومن كل نوع وهذا ما يلزم لتنشيط تواتر الاستهلاك وإعطاء السوق حيوية ما... كل ذلك في وقت وجيز جداً، وعلى مرمى من يد طفل... لقد رأى رئيس الاتحاد إنفتاح أفق جديد وإنه الآن في سابع سماء من فرط حماسه...

سأل ماركو فالدو بصوت خافت: لكن هل دمر هذا الطفل أشياء كثيرة حقاً؟ - من الصعب القيام بعملية حسابية حتى ولو كانت تقريبية على اعتبار أن المنزل قد احترق...

عاد ماركو فالدو إلى الشارع المضاء، ليلاً، والمكتظ بالأمهات والأطفال والأعمام والأخوال والأجداد وعلب الهدايا والبالونات والأحصنة الهزازة وأشجار عيد الميلاد والرجال المتكرين بزى بابوناتاله، والدجاج والديوك الرومية وكعك العيد وزجاجات المشروبات وناقضي القرب ومنظفي المداخل وبائع الكستناء المشوية الذين يجعلون أطباقاً من الكستناء تقفز على نار الموقد الأسود المتوهج.

وبدت له المدينة أصغر بكثير، وكأنها جمعت في أنبوب زجاجي مضاء مدفونة في قلب غابة سوداء بين جذوع أشجار الكستناء المعمرة مئات السنين، ورداء من الثلج لا حدود له. ومن جهة ما من الظلام يسمع عواء الذئب، والأرانب البرية مختبئة في جحورها المدفونة تحت الثلج في التربة الحمراء الدافئة تحت طبقة من قشور ثمار الكستناء.

خرج أرنب بري أبيض اللون فوق الثلج وحرك أذنيه ثم جرى تحت ضوء القمر. لكنه كان أبيض ولم يكن يُرى، كأنما لا وجود له. كانت قوائمه الصغيرة فقط تترك بصماتها الخفيفة على الثلج مثل أوراق شجيرة البهشة.

حتى الذئب لم يكن بالإمكان رؤيته أيضاً، لأنه كان أسود ويقبع في مكان مظلم أسود من الغابة، إلاً عندما يفتح فمه فتظهر أنيابه البيضاء الحادة.

كان هناك خط تنتهي عنده الغابة الغارقة في السواد ويبدأ معه الثلج الأبيض الناصع حيث يجري الأرنب البري هنا، والذئب هناك.

رأى الذئب آثار قوائم الأرنب البري على الثلج فتتبعها محتفظاً بنفسه دائماً ضمن المنطقة السوداء حتى لا يرى. وعند النقطة حيث تنتهي آثار القوائم لا بد وأن يكون الأرنب البري هناك، خرج الذئب من المنطقة السوداء وفتح فمه مكشراً عن أنيابه الحادة وعض الهواء.

كان الأرنب البري إلى أبعد من هناك بقليل، غير مرئي يفرك أذنه بإحدى قوائمه فهرب قافزاً.

هل هو هنا؟ هناك؟ لا، أهو أبعد من هناك بقليل؟

كان الشيء الوحيد الذي يُرى هو امتداد الثلج الأبيض الشبيه بهذه الصفحة.

غابة على الأوتوستراد

من مجموعة ماركو فالدو

للبرد ألف شكل، والف طريقة يتحرك بها في العالم. فهو يعدو مثل قطيع من الخيول على شاطئ البحر، وينقض مثل سرب من أسراب الجراد في الريف، أما في المدن فإنه يحل مثل نصل سكين فيقطع الشوارع ويتسلل عبر شقوق البيوت غير المدفأة.

في ذلك المساء نفذت في منزل ماركو فالدو آخر قطع الحطب، وجلست العائلة بأكملها متدثرة بمعاطفها وهي تنظر إلى قطع الجمر تشحب في المدفأة، ومن أفواه أفرادها تتصاعد سحب البخار مع كل تنفس. لم يعد أحد منهم يتكلم ونابت السحب بالتكلم عنهم فكانت الزوجة تطلقها طويلة طويلة مثل التنهدات، والأولاد ينفثونها على مجموعات متناغمة مثل فقاعات الصابون، أما ماركو فالدو فقد كان ينفخها إلى الأعلى بلا انتظام أشبه بومضات نبوغ سرعان ما تختفي.

وأخيراً عزم ماركو فالدو على القيام بأمر ما - سأذهب لأبحث عن الحطب، من يدري أنني لن أجد شيئاً منه - فدرس أربع أو خمس صحف بين سترته وقميصه ليجعل منها درعاً يقيه ضربات الهواء، وخبأ تحت معطفه منشاراً طويلاً. وهكذا خرج في الليل تتبعه عائلته بنظراتها الطويلة المفعمة بالأمل، مصدراً صوت حفيف أوراق مع كل خطوة من خطواته ويبرز معها المنشار بين حين وآخر من أعلى ياقة معطفه.

إنها لكلمة سهلة! «الذهاب للبحث عن الحطب في المدينة». توجه ماركو فالدو على الفور نحو قطعة من حديقة عامة تقع بين طريقين. كان المكان خالياً بأكمله. تفحص ماركو فالدو الشجيرات العارية واحدة تلو الأخرى مفكراً بعائلته التي تنتظره بأسنان مصطكة.

كان ميكيلينو الصغير، الذي تصطك أسنانه من البرد، يقرأ كتاباً من الحكايات استعاره من مكتبة المدرسة الصغيرة، ويتحدث الكتاب عن طفل، ابن لأحد الحطابين، خرج بفأسه ليقطع الحطب من الغابة. فقال ميكيلينو لنفسه - هذا هو المكان حيث يجب أن نذهب، إلى الغابة! هناك حيث الحطب! وقد ولد وترعرع في المدينة لذلك لم يكن قد رأى أبداً غابة ولا حتى عن بعد. اتفق مع أخويه قارناً القول بالفعل. فأخذ أحدهم فأساً والثاني خطافاً والثالث حبلاً وحيواً أهمهم ثم ذهبوا للبحث عن الغابة.

ساروا أولاً في المدينة المضاءة بالمصابيح فلم يروا إلا المنازل. أما الغابات فلم يعثروا على أثر ظل لها. ورغم أنهم التقوا ببعض العابرين القليلين لكنهم لم يجروؤوا على سؤالهم أين توجد الغابة. إلى أن وصلوا وهم على هذه الحال إلى حيث تنتهي بيوت المدينة وحيث تصبح الطريق أوتوستراداً.

رأى الأطفال الغابة على جانبي الطريق حيث كانت تمنع رؤية السهل نباتات كثيفة من الأشجار الغريبة لها جذوع رفيعة جداً مستقيمة أو مائلة، ولها جمّة مفلطحة وممتدة من أكثر الأشكال غرابة ومن أغرب الألوان أيضاً، حيث كانت تضيئها السيارات العابرة بأضواء مصابيحها فتبدو الأغصان على شكل معجون الأسنان أو وجوه، أجبان، يد، آلة حلاقة، زجاجة، بقرة، أو إطار سيارة وجميعها مزينة بأوراق من حروف الأبجدية.

قال ميكيلينو: مرحى! هذه هي الغابة!

كان أخواه ينظران إلى القمر من بين تلك الظلال الغريبة مسحورين، وصاحا: كم هو جميل...

فدعاهما ميكيلينو فوراً، مذكراً إياهما بالهدف الذي من أجله جاؤوا إلى هناك، الحطب. وهكذا قطعوا شجرة صغيرة على شكل زهرة الربيع الصفراء وأحالوها إلى قطع حملوها إلى البيت.

وعندما عاد ماركو فالدو إلى البيت بحمولته الضئيلة من الأغصان الرطبة وجد المدفأة موقدة.

فسأل مشيراً إلى بقايا اللوحة الإعلانية التي احترقت بسرعة كبيرة باعتبار أنها مصنوعة من الخشب المعاكس:

- من أين جلبتم هذه؟

فقال الأطفال: من الغابة!

- وأية غابة؟

- تلك الموجودة على الأوتوستراد. إنها مملأى بها!

ولأنه رأى أن الأمر بسيط هكذا، وأن هناك حاجة من جديد للحطب فإنه وجد من الأجدى له أن يفعل مثل الأطفال، عاد ماركو فالدو للخروج بمنشاره وذهب إلى الأوتوستراد.

كان الشرطي استولفو من شرطة المرور قصير النظر وبحاجة لاستعمال النظارات ليلاً وهو يقود دراجته أثناء الخدمة. إلا أنه لم يكن ليجرؤ على البوح بذلك مخافة أن يشكل ضرراً على مستقبله الوظيفي.

أبلغ في ذلك المساء عن واقعة أن عصابة من الأطفال يقطعون اللوحات الاعلانية على الأوتوستراد. فانطلق الشرطي استولفو بمهمة تحقق.

وعلى جانبي الطريق رافقت غابة الصور الغربية المومية له والناصحة استولفو الذي كان يتفحصها الواحدة تلو الأخرى وهو يدير عينيه القصيرتي النظر. وما هو ضوء مصباح الدراجة يفاجيء طفلاً صغيراً متسلقاً على لوحة ما. كبح استولفو جماح دراجته: هيه! أنت ماذا تفعل هناك؟ هيا انزل فوراً!

لكن ذاك لم يتحرك، بل كان يمد له لسانه. اقترب استولفو منه فرأى أنها صورة دعاية لنوع من الأجبان تصور طفلاً يلعب شفتيه.

فقال استولفو: هكذا إذاً - وعاد أدراجه بأقصى سرعة.

بعد ذلك بقليل وفي ظل لوحة ضخمة أضيء وجه حزين خائف فصاح: قف هناك! لا تحاول الهرب! لكن أحداً لم يهرب إنه وجه إنساني متألّم رُسم وسط قدم مليئة بالمسامير اللحمية. إنها دعاية مفتت المسامير اللحمية، فقال استولفو:

- أه، عفواً. وانطلق مبتعداً.

أما لوحة الاعلان عن حبوب اللصداع فقد كانت تصور رأساً ضخماً لرجل وضع يديه على عينيه من شدة الألم. مر استولفو فأضاء المصباح ماركو فالدو

المتسلق على قمة اللوحة وهو يحاول أن يقطع بالمنشار قطعة منها. وقد حاول أن يتضاعف بعد أن بهره الضوء، ومكث هناك بلا حراك ممسكاً بأذن من الرأس وقد وصل منشاره إلى منتصف الجبهة.

درس استولفو الإعلان بعناية وقال: أه، أجل إنها حبوب «ستابا!». إعلان فعال واكتشاف ذكي. إن ذلك الرجل الصغير فوق مع ذلك المنشار يعني أن الصداع النصفي يقص الرأس إلى نصفين! لقد فهمتها فوراً! ورحل من هناك...

ران الصمت والبرد، فتنهد ماركو فالدو متنفساً الصعداء وجلس على حامل اللوحة غير المريح وعاد إلى عمله، وفي السماء المضاءة بالقمر انتشر النعيق المخفف للمنشار وهو يقص الخشب.

الصحفة*)

من مجموعة ماركو فالدو

إن مباحج ذلك الوعاء المدور والعميق الذي يدعى «بالصحفة» تركز قبل كل شيء على كونه قابلاً للفق. كما أن حركة فك الغطاء تجعل اللعاب يسيل في الفم خاصة إذا كان الشخص لا يعرف أيضاً ما بداخلها لأن زوجته على سبيل المثال هي التي تعد له الصحفة كل صباح. فما أن ينزع غطاء الصحفة حتى يرى الطعام فيها متراصاً، كالسلامي والعدس أو البيض المسلوق والشمندر أو ربما عصيدة من دقيق الذرة مع السمك المقدد، وكل ذلك مرتب جيداً في مساحة تلك الدائرة مثل القارات والبحار على خرائط الكرة الأرضية. وإذا ما كان الطعام قليلاً أيضاً فإنه يبهر بنوع من الأشياء المغذية والمتراصة. وما أن ينزع الغطاء حتى يصبح صحناً وهكذا يمكن الحصول على وعاءين والبدء بفرز المحتوى.

ما أن يفك غطاء الصحفة ويشتم رائحتها بسرعة فإن العامل اليدوي ماركو فالدو يمد يده إلى الملعقة والشوكة والسكين التي يحملها معه دائماً في جيبه ملفوفة ضمن صرة منذ أن بدأ يأكل طعامه بالصحفة عند منتصف النهار بدلاً من العودة إلى المنزل. تقوم أولى ضربات شوكته بإيقاظ الأطعمة الفاترة قليلاً وإعطائها الأهمية والسحر لطبق قُدّم على الطاولة منذ قليل من تلك الأطعمة التي حفظت داخلها مسبقاً لساعات عديدة. عندئذ يرى أن الطعام قليل فيفكر: «من المناسب أكله ببطء» ولكن أولى اللقمة السريعة المتلطفة كانت قد حُملت سابقاً إلى الفم.

عند تذوقه لأول وهلة يشعر بكآبة الطعام البارد لكن المباحج سرعان ما تبدأ

(*) الصحفة بالعامية / السفرطاس /.

من جديد عند إحساسه بطعم مائدة العائلة منقولة على سيناريو غير معهود. بدأ الآن ماركو فالدو بمضغ طعامه ببطء جالساً على مقعد في الشارع قرب مكان عمله على اعتبار أن منزله بعيد وأن الذهاب إليه عند منتصف النهار يجعله يضيع الوقت ويستهلك بعض ثقب بطاقة الترام. لهذا فهو يحمل معه غداءه ضمن الصحيفة المشتراة لهذا الغرض ويأكل في الهواء الطلق ناظراً إلى المارة من الناس ثم يشرب من سبيل ماء. وإذا كان الوقت خريفاً وهناك شمس فإنه يختار الأماكن التي يصل إليها بعض من الأشعة مستخدماً الأوراق الحمراء التي تتساقط من الأشجار كمنشفة، كما تذهب قشور السلامي إلى الكلاب الشاردة التي لا تتأخر حتى تصبح من أصدقائه، وأما فتات الخبز فتلتقطها عصافير الدوري في لحظة عدم مرور أحد ما في الشارع.

فكر وهو يأكل: لماذا يسرني طعم طبخ زوجتي وأنا أجده هنا بينما على العكس من ذلك في البيت، بين الشجار والبكاء والديون التي تطلع علينا مع كل نقاش، لا يسعني تذوقه؟ ثم تذكر: ها قد تذكرت الآن هذه هي بقايا عشاء البارحة، وقد عاوده اليأس مجدداً، ربما لأن عليه أن يأكل البقايا الباردة الزنخة قليلاً لأن أليوم الصحيفة نقل مذاقاً معدنياً إلى الأطعمة. لكن التفكير الذي يدور في ذهنه هو: ها هي فكرة دوميتيلا تفلح بجعلي أتذوق الغداء أيضاً وأنا بعيد عنها.

تنبه في تلك اللحظة إلى أنه وصل تقريباً إلى النهاية، ويبدو له من جديد أن ذلك الصحن هو شيء ما شهى جداً ونادر فيأكل بحماسة وتفان آخر البقايا الموجودة في قاع الصحيفة، تلك البقايا التي لها طعم المعدن أكثر من غيرها. ثم يعاوده الحزن مجدداً وهو يتأمل الوعاء الفارغ الملوث بالدم.

حينئذ يغلف كل شيء ويضعه في جيبه وينهض، ولكن ما زال الوقت باكراً للعودة إلى العمل، وتقرع الملعقة والشوكة والسكين في جيوب سترته الواسعة بصخب على الصحيفة الفارغة. ويذهب ماركو فالدو إلى خمارة حيث يجعلهم يسكبون له كأساً طافحاً، أو يحتسي فنجاناً من القهوة في مقهى ما، ثم ينظر إلى شطائر الحلوى في الواجهة الزجاجية، وكذلك إلى علب السكاكر والنوغا ويقنع نفسه بأنه ليس صحيحاً أنه يشتهيها وأنه لا يشتهي أي شيء، وينظر متشاغلاً للحظة إلى قدمه كالطفل ليقنع نفسه أنه يريد خداع الوقت لا

الشهية. ثم يعود أدراجه إلى الشارع وقد ازدحمت حافلات الترام من جديد وأذنت ساعة العودة إلى العمل فيتوجه إليه.

يحدث أن تشتري زوجته دوميتيلا، لأسبابها الخاصة، كمية كبيرة من السجق فيجد ماركو فالدو السجق واللفت على العشاء لثلاث أمسيات. لا بد وأن ذلك السجق من لحم الكلاب فقد كانت رائحته وحدها تكفي لجعله يفقد الشهية على الفور. أما بالنسبة للفت فإن تلك الخضار الشاحبة الهاربة كانت النوع الوحيد من الخضار الذي لم يستطع ماركو فالدو أن يطيقه أبداً.

وعند منتصف النهار ها هو من جديد السجق واللفت البارد والدسم هناك في الصحفة. ناسياً كيف كان، وبدون أن يتذكر ما قد أكله البارحة على العشاء، فقد كان يفك الغطاء دائماً بفضول وشراهة ويشعر كل يوم بخيبة الأمل نفسها. في اليوم الرابع، أنشب الشوكة داخلها واشتم الرائحة مرة أخرى أيضاً فنهض عن المقعد وتوجه بشرود نحو الطريق حاملاً بيده الصحفة مفتوحة. كان المارة يرون هذا الرجل الذي كان يتمشى وبيده شوكة وفي اليد الأخرى إناء فيه السجق، يبدو وكأنه لم يقرر بعد أن يحمل إلى فمه أول لقمة. ومن نافذة قال له طفل ما: هيه، أنت يا رجل!

رفع ماركو فالدو عينيه. من الطابق المرتفع من فيلا رجل غني كان يطل طفل سائداً كوعيه على مقدمة النافذة حيث كان أمامه صحن ما.

– ايه، أنت يا رجل! ماذا تأكل؟

– سجق ولفت!

– هنيئاً لك. قال له الطفل.

فقال له ماركو فالدو بغير وضوح: ايه...

– انظر إن عليّ أن أكل النخاع المقلي...

نظر ماركو فالدو إلى الصحن في مقدمة النافذة. كان فيه النخاع المقلي الطري والمجعد مثل ركام من الغيوم فاهتزت فاحتتاً منخريه، فسأل الطفل:

– لماذا، ألا يعجبك النخاع؟

– لا، لقد حبسوني هنا عقاباً لي لأنني لا أريد أن أكله ولكنني سأرمي به من النافذة.

– وهل يعجبك السجق؟

– أوه، أجل يبدو كسمكة السلور... نحن لا نأكله أبداً في بيتنا...

– إذاً أعطني أنت صحنك وسأعطيك صحنِي.

– فلتعش!

كان الطفل فرحاً فأعطى للرجل صحنه المصنوع من الخزف الصيني وشوكتة الفضية المزخرفة بأكملها، وأعطاه الرجل الصحن مع شوكة القصدِير.

وهكذا شرع الاثنان يأكلان معاً، الطفل على مقدمة النافذة وماركو فالدو على مقعد هناك قبالتة، كانا معاً يتلذذان بالطعام، يلعبان شفاههما ويقول أحدهما للآخر أنه لم يتذوق أبداً طعاماً لذيذاً مثله.

هكذا إلى أن ظهرت خلف كتفي الطفل المربية واضعة يديها عليهما أيضاً.

– سيدي الصغير! يا إلهي ماذا تأكل؟

– سجق. قال لها الطفل.

– ومن الذي أعطاه لك؟

– ذلك السيد الجالس هناك.

وأشار إلى ماركو فالدو الذي قطع مضغه البطيء والمثابر للقمة من النخاع.

– ارمه! ماذا أشم! ارمه خارجاً!

– لكنه طيب...

– وصحنك؟ والشوكة؟

– مع السيد... وأشار مجدداً إلى ماركو فالدو الذي يمسك بالشوكة في

الهواء وقد شك بها قطعة مقضومة من النخاع.

فشرعت تلك تصرخ: إلى اللص! إلى اللص! الشوكة والصحن!.

نهض ماركو فالدو ونظر أيضاً للحظة إلى بقية المقالي المتروكة واقترب من

النافذة ووضع الصحن والشوكة على مقدمة النافذة ورمق المربية بنظرة احتقار وانسحب. وسمع صوت تدحرج الصفحة على الرصيف وبكاء الطفل وارتطام النافذة التي أغلقت بفضاظة. انحنى ليلتقط الصفحة والغطاء، كانا مبعجين قليلاً ولم يعد الغطاء ليغلق جيداً فوضع كل شيء في جيبه ومضى إلى عمله.

الحمام البلدي

من مجموعة ماركو فالدو

نادراً ما تمر بالمدينة الدروب التي تعبرها الطيور المهاجرة نحو الشمال أو الجنوب، في الخريف أو الربيع. فأسراب الطيور تشق السماء عالية فوق تلال الحقول المثلمة وأطراف الغابات وتبدو تارة وكأنها تتبع الخط المتعرج لنهر أو أخدود واد ما، وتارة أخرى تتبع مسارات الهواء الخفية. لكنها تنعطف مبتعدة نحو الفضاء ما أن تظهر أمامها سلاسل أسطحه البنايات في المدينة.

ومع ذلك ظهر، ذات مرة، سرب من طيور القطا في قسم من سماء شارع في المدينة. كان ماركو فالدو الشخص الوحيد الذي لمح أنه يمشي دائماً وأنفه مرفوع وهو يرنو إلى السماء. كان يقود حينها شاحنة صغيرة ذات ثلاث عجلات وقد أطلق لها العنان حينما شاهد الطيور وكأنه يطاردها مثل صياد مأخوذ بأحلام اليقظة، مع أنه لم يسند إطلاقاً إلى كتفه بندقيّة إلاّ بندقيّة الجندي.

كان مستمراً على هذا النحو بقيادة شاحنته، ومتابعاً الطيور وهي تطير حينما وجد نفسه وسط تقاطع طرق، وقد أضاعت الإشارة الحمراء، بين السيارات وكاد أن يُصدم من قبلها على بعد شعرة منها. وبينما كان شرطي المرور بوجهه المحمر غضباً يكتب اسمه وعنوانه في دفتره كان ماركو فالدو لا يزال يبحث بنظره عن تلك الأجنحة المحلقة في السماء، إلا أنها كانت قد اختفت.

وفي الشركة حيث يعمل سببت له المخالفة توبيخاً لازعاً، إذ صاح به رئيس القسم السيد فيليمو: حتى إشارات المرور لا تفهمها؟ إلى ماذا كنت تنظر أيها الأبله؟. فأجابته: كنت أنظر إلى سرب من القطا.

– ماذا؟ ولعت عينا السيد فيليمو الذي كان رجلاً عجوزاً وحكى له ماركو
قالدو القصة.

قال رئيس القسم الذي أصبح مبتهجاً للغاية وقد نسي حينئذ فورة غضبه:
يوم السبت سأخذ معي كلبتي وبنديتي! لقد بدأت هجرة الطيور في أعالي
التلال ومن المؤكد أن الصيادين قد أفرغوا ذلك السرب مما جعله يميل نحو
المدينة.

لم يتوقف عقل ماركو قالدو طيلة ذلك اليوم عن التفكير وهو يدور مثل حجر
الطاحون. «إذا ما أصبحت التلال تعج بالصيادين، كما هو متوقع، فإن الله
وحده يعلم كم من طيور ستعنيها المدينة، وإذا ما أحسنت التصرف فإنني
سأكل يوم الأحد قطة مشوية».

كان سطح البناية التي يسكن فيها ماركو قالدو مستوياً وقد نصبت فوقه
أسلاك معدنية لنشر الغسيل. صعد ماركو قالدو إلى السطح مع ثلاثة من
أبنائه، حاملين معهم صفيحة صغيرة من الدبق وفرشاة وكيساً من الذرة،
وبينما كان الأطفال يثرون حبوب الذرة في كل مكان راح هو يدهن الحواجز
والأسلاك وأفاريز المداخل بالدبق، وقد أفرط في استخدام الدبق لدرجة كاد
معها فيليبينو أن يلتصق بالدبق وهو يلعب.

في تلك الليلة حلم ماركو قالدو بالسطح مغطى بطيور القطا العالقة بالدبق
التي تنتفض. أما زوجته دوميتيلا الأكثر طمعاً وكسلاً فقد حلمت ببط محمر
مسبقاً موضوع على المواقد كما حلمت ابنتها الرومانسية ايزولينا بالطائر
الطنان لتزين قبعتها بريشه. بينما حلم ميكيلينو بأن يجد أحد طيور اللقلق.

وفي اليوم التالي كان أحد الأطفال يستطلع الأمر على السطح، فيطل برأسه
قليلاً من المنور كي لا تفزع الطيور، في حالة كونها تهتم بالهبوط على السطح.
ثم يعود إلى الأسفل لينقل الأخبار. لم تكن الأخبار سارة إطلاقاً إلى أن عاد
«بيروتشو» حوالي منتصف النهار وهو يصرخ: «إنها هنا! يا أبي! تعال!».

صعد ماركو قالدو إلى السطح ومعه كيس. كانت هناك حمامة مسكينة
عالقة وملطخة بالدبق، حمامة رمادية من تلك الحمامات الأليفة المعتادة على
الناس وعلى ضوضاء الساحات العامة. ترفرف حولها حمامة أخرى تتأملها

بحزن وهي تحاول تخليص أجنحتها من عصيدة الدبق الذي حطت عليه بشكل خاطيء.

كان أفراد عائلة ماركو فالدو يمصون لبَّ عظام تلك الحمامة المشوية الهزيلة عندما سمعوا طرقاتاً على الباب.

كانت تلك خادمة صاحبة المنزل. قالت: إن سيدتي تريدك! تعال في الحال! ولأنه كان قد تأخر عن دفع إيجار البيت مدة ستة أشهر وكان يخشى الإخلاء، ذهب ماركو فالدو قلقاً جداً إلى بيت السيدة في الطابق الأول. وما أن دخل إلى قاعة الجلوس حتى رأى زائراً يجلس فيها. إنه الشرطي ذو الوجه الأحمر الغاضب.

قالت السيدة: تعال يا ماركو فالدو. لقد أعلموني أن شخصاً ما يسطان على سطح بيتنا حمام البلدية. ألا تعرف أنت شيئاً عن الأمر؟ أحس ماركو فالدو بنفسه وكأنه يتجمد.

وفي تلك اللحظة صرخ صوت امرأة: سيدتي! يا سيدتي!
– ماذا هناك يا غوندالينا؟

دخلت الغسالة وقالت: لقد صعدت إلى السطح لأنشر الغسيل. ولكن الغسيل التصق كله بالأسلاك وعندما حاولت أن أجذبه تمزق بيدي! لقد تلف الغسيل. ألا تعرفين السبب؟

مرّر ماركو فالدو يده على معدته متوجساً وكأنه لا يفلح بهضم شيء ما.

دخان وريح وفتحات صابون

من مجموعة ماركو فالده

● يودع ساعي البريد بضع مغلفات كل يوم في صناديق بريد المستأجرين. إلا أن صندوق ماركو فالده فقد ظل خالياً، فلا أحد كان يكتب إليه إطلاقاً. ولم يكن صندوقه ذا جدوى لأي شيء بالضبط إن لم يستخدم من حين لآخر لإشعارات دفع فواتير الكهرباء والغاز.

صرخ ميكيلينو: أبي، لدينا بريد.

أجابه: دعك من هذا! إنها أوراق الدعاية المعتادة.

● كانت تبرز من علب الرسائل ورقة مطوية زرقاء وصفراء اللون. تعلن أن مسحوق «البلانكسول» هو من أفضل المنتجات من أجل الحصول على رغوة صابون جيدة. وأن من يتقدم بالورقة الزرقاء الصفراء يحصل منه على عينة مجانية صغيرة.

● وبما أن هذه الأوراق كانت ضيقة وطويلة فإن بعضاً منها ينثني خارج فتحات العلب، وبعضها الآخر ملقى على الأرض مكوراً. أو مدعوكاً قليلاً فقط، لأن كثيراً من المستأجرين اعتادوا عند فتحهم العلب أن يلقوا على الفور بكل الأوراق الدعائية التي تغص بها. وهكذا بدأ فيلييتو وبيتروتشو وميكيلينو بتجميع مجموعات من قسائم البلانكسول، جامعين بعضها من على الأرض، ومتناولين قليلاً منها من فتحات العلب وزيادة على ذلك مصطادين بعضها بشريط من الحديد.

– لديّ أنا الأكثر منها!

– لا، عدّها! لنراهن على أنه ندي أنا منها أكثر!

● كانت الحملة الدعائية للبلانكسول وقد اكتسحت الحي بأكمله الباب تلو الآخر. وقد كرس الأولاد أنفسهم لمسح الحي باباً تلو الآخر مستولين على القسائم.

بعض البوابات كن يطردنهم صارخات:

– يا أولاد! ماذا أتيتم تسرقون؟ سأخبر الحراس! وأخريات كن مسرورات لأنهم يقومون بتنظيف المكان قليلاً من كل تلك الأوراق التي تتكدس هناك كل يوم.

عند المساء، كانت غرفتا ماركو فالدو الفقيرتان قد تلوّنتا بالأزرق والأصفر بفعل أوراق البلانكسول التي راح الأولاد يعدونها ويعيدون عدها ويكدسونها على شكل رزم كما يفعل أمناء الصناديق في المصارف بأوراق النقد.

سأله فيليبوتو: أبي، إذا ما حصلنا على الكثير منها، هل سيكون بإمكاننا فتح محل للغسيل؟

في تلك الأيام كان عالم إنتاج المنظفات في حالة فوران عظيمة، إذ أن الحملة الدعائية للبلانكسول أثارت الذعر لدى الشركات المنافسة، ومن أجل طرح منتجاتها فإنها وزعت على كل العلب البريدية في المدينة هذه القسائم التي تعطي الحق بالحصول على عينات مجانية أكبر حجماً دائماً.

وهكذا كان على أولاد ماركو فالدو أن يعملوا كثيراً في الأيام التالية، إذ أن صناديق الرسائل راحت تزهر كل صباح، مثل أشجار الدراق في الربيع، بأوراق ذات رسوم خضراء وزهرية وسماوية وبرتقالية، تعد من يستخدم «سبومادور أو لاقالوكس أو سابونالبا أو ليمبيلين» بغسيل ناصع البياض. وبالنسبة للأولاد فقد توسعت مجموعات القصاصات وقسائم الهدايا دائماً بتصنيفات جديدة. كما توسعت في الوقت نفسه غزواتهم ممتدة إلى أبواب شوارع أخرى.

وبالطبع لم يكن بالإمكان أن تمر تلك المناورات دون أن تثير الانتباه إليها، فلم يتأخر أولاد الجوار بفهم الأمر الذي يدفع ميكيلينو وإخوته للصيد طيلة النهار. وعلى الفور أصبحت تلك الأوراق التي لم يكن يعيرها أحد حتى ذلك الحين الاهتمام أبداً، غنيمة مشتهاة، ومرت فترة من التنافس بين جماعات

الأولاد المختلفة أصبح فيها جمع الأوراق في منطقة بدلاً من منطقة أخرى سبباً للنزاعات والمناوشات بينهم. ثم، وعلى أثر سلسلة من المبادلات والمفاوضات، اتفقوا وذلك عبر تنسيق منظم للصيد كان أكثر جدوى من التخریب الفوضوي. وأصبح جمع الأوراق أكثر منهجية. فما أن يمر لتوه صبي «الكاندوفيور أو ريشاكويك» ليدور على الأبواب حتى يصبح مسيره مراقباً ومتابعاً خطوة تلو أخرى، ويستولي الأولاد فوراً على المواد التي وزعت لتوها.

ومن المفهوم أن فيلييتو وبيروتشو وميكلينو كانوا يقودون العمليات دائماً لأن الفكرة الأولى كانت فكرتهم، لدرجة أنهم أفلحوا بإقناع الصبية الآخرين بأن القسائم هي إرث مشترك ويجب حفظها كلها معاً.

وأوضح بيروتشو: مثلما يفعل البنك!

فسأل ميكلينو: هل نحن نملك محل غسيل أم بنكاً؟

– أياً كان فنحن من أصحاب الملايين!

لم يعد الأولاد ينامون بفعل الإثارة وهم يعدون مشاريع للمستقبل.

– يكفي أن نستبدل كل هذه القسائم وسنجمع معاً كمية كبيرة من المنظفات.

– أين سنضعها؟

– علينا أن نستأجر مخزناً!

– ولماذا لا نستأجر باخرة؟

● وبما أن للدعاية مواسم مثلها مثل الزهور والفواكه، فقد انتهى موسم المنظفات بعد بضعة أسابيع. وتواجدت في الصناديق اعلانات عن مستحضرات مفتت المسامير اللحمية. فاقترح أحدهم:

– هل نشرع بجمع هذه أيضاً؟

لكنهم رجحوا فكرة تكريس أنفسهم لتحويل الثروات المكدسة إلى مساحيق تنظيف. وكان المقصود الذهاب إلى المحلات المحددة للحصول على عينة بدلاً

من القسيمة. إلا أن هذه المرحلة الجديدة في مخططهم، التي كانت تبدو سهلة ظاهرياً، بدت أكثر طولاً وتعقيداً من الأولى.

وهكذا جرت العمليات بنظام متفرق حيث يذهب صبي في كل مرة إلى المتجر وبإمكانه أن يقدم أيضاً ثلاث أو أربع قسائم معاً على أن تكون لأنواع مختلفة، وإذا ما أراد الباعة إعطاء عينة واحدة من نوع واحد ولا شيء آخر فإن عليه أن يقول:

– إن أمي تريد أن تجربها كلها لترى أيها الأفضل.

● لكن الأمور تعقدت عندما – مثلما يحدث في العديد من المتاجر – وجدوا أنهم يعطون العينة المجانية فقط لمن يقوم بشراء حاجياته. ولم تكن الأمهات قد رأين أطفالهن متلهفين كثيراً للذهاب والقيام بالمهمة في المتاجر.

وبالنتيجة فإن عملية تحويل القسائم إلى بضائع كانت تستغرق وقتاً طويلاً وتتطلب مصروفات إضافية لأن المشتريات بنقود الأمهات قليلة، والمتاجر التي يجب التنقيب فيها كثيرة. ولم يكن هناك من واسطة أخرى لتأمين الأموال إلا في البدء بالمرحلة الثالثة من المخطط، أي بيع المنظفات التي سبق جمعها.

فقرروا القيام ببيعها للبيوت، قارعين أجراسها:

– سيدتي! هل يهmk؟ غسيل ناصع البياض! –

ويقدمون علبة من «ريشاكويك» أو مطروفاً من «البلانكسول»

– أجل، أجل. أعطني منها شكراً.

كانت إحداهن، تأخذ العينة وتغلق الباب بوجههم وتقول:

– كيف؟ والدفع؟ ويمطرون الباب بضربات من قبضاتهم.

– الدفع؟ أليس بالمجان؟ هيا إذهبوا يا أولاد!

وفي الواقع كان يمر على البيوت، بيتاً تلو الآخر، في تلك الأيام بالضبط المكلفون من مختلف الأصناف ليقدموا عينات مجانية. إذ كانت تلك حملة دعائية جديدة شرع بها كامل فرع المنظفات بعدما رأى أن حملة القسائم المجانية قليلة الإثمار.

● بدا منزل ماركو فالدو أشبه بمخزن متجر، مليء كما كان بمنتجات

«الكانديفور، واليمبيالين ولافالوكس». لكن من كل هذه الكمية من البضاعة لم يكن بإمكانه الحصول حتى ولا على قرش واحد. فهي بضاعة تُهدى مثل ماء الينابيع.

● وبالطبع لم تتأخر بعض الإشاعات بالانتشار بين مكلفي الشركات عن بعض الأولاد الذين يقومون بمثل جولاتهم على الأبواب باباً تلو الآخر بائعين نفس المنتجات التي يرجون هم من الناس قبولها مجاناً. وباعتبار أن موجات التشاؤم أمر معتاد في عالم التجارة. فقد بدأت الأحاديث عن أن الناس الذين كانوا يجيبونهم بأنهم لا يعرفون ماذا سيفعلون بتلك التي يقدمونها لهم كهدايا، كانوا على العكس من ذلك يشترونها من أولئك الذين يجعلونهم يدفون ثمنها. فما كان إلا أن اجتمعت مكاتب الدراسات في مختلف الشركات واستشير أخصائيو «بأبحاث السوق» وكانت النتيجة التي توصلوا إليها هي أن منافسة غير مشروعة بهذا الشكل يمكن أن يقوم بها فقط مخبئو البضائع المسروقة. وبدأت الشرطة على أثر شكوى نظامية ضد مجهولين، تجوب الأحياء بحثاً عن اللصوص ومخبئو المسروقات.

● من لحظة لأخرى أصبحت المنظفات خطيرة مثل الديناميت، فخاف ماركو قالدو وقال: لا أريد بعد الآن حتى ولا غراماً واحداً من هذه المساحيق في بيتي! لكن لم يعرف أحد أين يضعها فلا أحد يريدها في البيت فتقرر أن يذهب الأولاد ويرموا بها في النهر.

● قبل الفجر، وصلت إلى الجسر عربة يجرها بيتروتشو ويدفعها أخواه محملة بعلب «سابونالبا، ولافالوكس» ثم عربة أخرى يجرها أوغوتشونه ابن البوابة المقابلة وآخرون، وآخرون أيضاً. وتوقفوا وسط الجسر. وأفسحوا المجال لمروور راكب دراجة كان يلتفت إلى الخلف مستطلعاً بفضول، ثم بدأ ميكيلينو رمي العلب في النهر قائلاً: - هيا لنبدأ! فصرخ به فيليبوتو: أيها الأحمق! ألا ترى أنها تطفو؟ يجب أن تفرغ المسحوق في النهر لا أن تلقي بالعلبة!

● ومن العلب المفتوحة الواحدة تلو الأخرى هبطت سحابة بيضاء خفيفة لتستقر على تيار الماء الذي كان يُرى وهو يمتصها لتعود فتظهر متكاثرة بفقاعات دقيقة ولتبدو من بعدها وكأنها تغرق في القاع.

- هكذا، جيد!

وتابع الأولاد إفراغ عشرات آلاف الغرامات، وعشرات آلاف الغرامات منها.

صرخ ميكيلينو: انتبهوا، انظروا هناك في الأسفل! وأشار إلى الوادي.

بعد الجسر كان شلال الماء السريع، حيث تيار الماء يندفع للأسفل. لم تعد الفقاعات الصغيرة ترى، وتعود للظهور إلى الأسفل بقليل. لكنها الآن كانت قد أصبحت فقاعات كبيرة تنتفخ متدافعة الواحدة تلو الأخرى من الأسفل، وارتفعت موجة من فقاعات الصابون وتضخمت وأصبحت عالية بمستوى علو الشلال مشكلة رغوة بيضاء مثل جفنة صابون حلاق حركها بفرشاة الحلاقة. وبدا أن كل تلك المساحيق من الأصناف المتنافسة كانت تؤكد ما ادعته لنفسها وتبرهن على فورانها. وهكذا فاضت ضفتا النهر بالفقاعات فما كان من الصيادين، الذين كانوا هناك منذ أول خيوط الفجر بأحذيتهم الطويلة، إلا أن سحبوا خيوطهم وهربوا.

مع نسيمات الصباح هبت الريح فانفصل عنقود من الفقاعات عن سطح الماء وطار، طار بعيداً بخفة. كان الفجر فتلونت الفقاعات بلون الزهر فصرخ الأولاد الذين رأوها تضي عالياً فوق رؤوسهم: أووه...

● طارت الفقاعات متابعة سلك مجرى الهواء اللامرئية فوق المدينة، والجة الشوارع على مستوى ارتفاع الأسطحة هاربة على الدوام من ملامسة الزوايا والميازيب. حينها انفطرت فقاعات العنقود المتراصة وطارت الواحدة تلو الأخرى على هواها آخذة كل منهن طريقاً مختلفة الارتفاع والسرعة والاتجاه وهامت وسط الهواء. ويمكن القول أنها تضاعفت، بل أن هذا كان صحيحاً لأن النهر تابع فيضانه بالرغوة مثل ابريق حليب على النار. والريح، الريح كانت ترفع عالياً فقاعات لعاب ورايات وسحباً تتناول بشرائط بلون قوس قزح (كانت حينها أشعة الشمس المائلة، الساقطة على الأسطحة، قد سيطرت على المدينة والنهر) وتغزو السماء فوق الأسلاك والهوائيات.

ظلال قاتمة لعمال يهرعون إلى المصانع على درجاتهم النارية المقطقة، ومجموعات الفقاعات الخضراء والزرقاء المتحررة من فوقهم تتبعهم. وكأنما كل

واحد بينهم يجرح خلفه عنقوداً من البالونات الصغيرة المربوطة إلى قبضة الدراجة بخيط طويل.

وكان أن انتبه الناس إلى ذلك من الترام: فلتنظروا!، ايه انظروا ماذا هناك في الأعلى؟. فتوقف السائق وهبط كما هبط جميع الركاب من الترام وشرعوا ينظرون إلى السماء. كما توقفت الدراجات الهوائية، وذات المحرك والسيارات وبائعو الصحف والخبازون وجميع المارة عند الصباح ومن بينهم ماركو فالدو الذي كان في طريقه إلى عمله. وقف الجميع وأنوفهم مرفوعة إلى الأعلى ينظرون متابعين طيران فقاعات الصابون.

وسألت سيدة عجوز: هل هذا شيء ذري؟

فانتشر الخوف بين الناس وراح كل من يرى منهم فقاعة تنزل فوقه يهرب صارخاً: إنها مشعة!

لكن الفقاعات تابعت طيرانها، بألوان قوس قزح، هشة وخفيفة لدرجة أن نفخة واحدة تكفيها لكي تنفجر!

ولم يعد لها من وجود.. وسرعان ما انطفأ الذعر بين الناس هكذا مثلما اتقد.

– ولكن أي اشعاع! إنه صابون! فقاعات صابون مثل تلك التي يلعب بها الأطفال!. وتملكهم فرح عارم:

– انظر إلى تلك! وتلك... وتلك!

لأنهم كانوا يرون منها فقاعات ضخمة ذات أبعاد لامعقولة. كانت تذوب مع تماسها وتصبح اثنتين وثلاثة، وتبدو السماء والأسطح وناطحات السحاب عبر هذه القباب الشفافة بأشكال وألوان لم تُرَ فيها أبداً من قبل.

ومن مداخنها كانت المصانع قد بدأت تنفث دخاناً أسوداً مثل كل صباح. والتقت مجموعات الفقاعات بسحب الدخان حيث كانت السماء مقسمة بين تيارات الدخان الأسود وتيارات الرغوة القزحية تبدو وكأنها تجاهد في بعض زوايا الهواء للحظة، للحظة واحدة فقط. بدت قمة المداخن وكأنها غُزيت بالفقاعات لكن سرعان ما حصل اختلاط ما – بين الدخان الذي كان يحصر

قوس قزح الرغوة وفقاعات الصابون التي تحصر وشاحاً من حبيبات سواد
الدخان - لدرجة لم يعد يمكن فهم أي شيء. وإلى حد أن ماركو فالدو بحث
وبحث في السماء فلم يعد يفلح برؤية الفقاعات وإنما فقط الدخان والدخان ولا
شيء غير الدخان.

حيث النهر أكثر زرقة

من مجموعة ماركو فالدو

كان زمناً تخفي فيه أكثر الأطعمة بساطة تهديدات ومكائد وأنواعاً من الغش، ولم يكن ليمضي يوم دون أن تتحدث فيه بعض الصحف عن اكتشافات مخيفة في مشتريات السوق، فالجين قد صنع من مواد بلاستيكية، والزبدة من الشمع الدهني، وفي الفواكه والخضار كان زرنخ مبيدات الحشرات مركزاً بنسب مئوية أكثر مما فيها من الفيتامينات، ولتسمين الدجاج فإنهم يحشونه ببعض الحبوب التركيبية التي تستطيع تحويل من يأكل منه فخذاً الى دجاجة، أما السمك الطازج فقد اصطيد السنة الماضية في ايسلندا أو كانوا يموهون عيونهم ليبدو وكأنه اصطيد البارحة، ومن بعض زجاجات الحليب خرج فأر لا يعرف فيما إذا كان حياً أم ميتاً، ومن زجاجات الزيت لم يكن يسيل زيت الزيتون الذهبي، بل دهن البغال العجوزة المقطر لحسن الحظ.

كان ماركو فالدو يستمتع في العمل أو في المقهى إلى مثل هذه الأمور، وفي كل مرة كان يشعر بمثل حافر بغل في معدته، أو جريان فأر في بلعومه. وعندما كانت زوجته دوميتيلا تعود من تسوقها الى المنزل، فإن رؤية السلة التي كانت تمنحه ذات مرة الكثير من المتعة لما فيها من الكرفس والباذنجان وعلب البهارات، ولحم الخنزير، بورقها الخشن ذي المسامات، اصبحت توحى اليه الآن بالخوف كما يحدث عند دخول اشخاص معادين الى داخل جدران المنزل.

فوجد نفسه: «يجب أن تتوجه كل جهودي لتزويد العائلة بالأغذية التي لم تمر بين أيدي المضاربين الماكرة». في ذهابه الى عمله عند الصباح كان يلتقي بعض المرات رجالاً يحملون خيطاً بصنارة وينتعلون أحذية مطاطية طويلة، متوجهين الى رصيف النهر.

«وتلك هي الوسيلة» قالها ماركو فالدو لنفسه. إلا أن النهر، هناك في المدينة، حيث تجمع القذارات والتصرفات والمجارير، كان يوحي اليه باشمئزاز عميق، فيقول لنفسه: علي أن أجد مكاناً حيث يكون الماء ماءً حقاً، وحيث تكون الأسماك أسماكاً بالفعل، وهناك سألقي بصنارتي.

كانت الأيام قد بدأت تطول، وبعد عمله كان ماركو فالدو يندفع على دراجته ذات المحرك لاكتشاف النهر في مجراه حتى اعلى المدينة، وكذلك روافده من السواقي، وكانت تثير اهتمامه على الأخص المقاطع التي يجري فيها أبعد ما يكون عن الطريق المعبدة، كان يسلك الطرق الضيقة بين أدغال الصفصاف على دراجته الى ابعد ما يستطيع.

وبعد أن يتركها في دغل ما، يتابع على قدميه حتى يصل الى مجرى الماء، وعندما تاه ذات مرة، أخذ يدور بين الضفاف ذات الأحراش والمنحدرات، ولم يعد يجد أي طريق، ولم يعد يعرف في أية جهة يتبع النهر، وفجأة بينما كان يحرك بعض الأغصان، رأى الماء الهادئ على مرمى أذرع قليلة منه الى الأسفل، كانت منطقة عريضة من النهر أشبه ما تكون بحوض صغير هادئ أزرق اللون، يبدو وكأنه بحيرة جبلية صغيرة.

لم يمنعه الانفعال من التقصي نحو الأسفل بين تموجات التيار الرقيقة، وها هو اصراره قد كوفيء! حركة، اهتزاز فريد لزعنفة على خط سطح الماء، وبعدها واحدة أخرى، وأخرى أيضاً، يا للسعادة التي لا تصدقها عيناه، فذاك مكان تجمع السمك في كل النهر، جنة الصياد التي ربما ما زالت مجهولة للجميع ما عداه، عائداً (وقد حل الغسق) توقف ليرسم علامات على لحاء الأشجار، وليكوم أحجاراً في بعض النقاط، كي يستطيع أن يجد دربه ثانية.

حينها لم يتبق له إلا أن يعد عدته، كان قد فكر بذلك مسبقاً في حقيقة الأمر، فبين جيران منزله وعمال الشركة، اكتشف عشرة من عشاق الصيد كان يعد كلاً منهم بكلمات مختصرة وبايحاءات باعلامه عن مكان مليء بسمك الكمة، يعرفه وحده، فقط، وذلك ما أن يتأكد له ذلك جيداً، فنجح في استعارة القليل من هذا والقليل من ذاك، ترسانة الصياد الأكثر كمالاً، والتي لم يمر مثلها اطلاقاً.

عند هذه النقطة لم يكن لينقصه أي شيء، قصبية، صنارة، شص، طعم،

شبكة، حذاء مطاطي طويل، سلة. وذات صباح جميل، وخلال ساعتين من الوقت (من السادسة الى الثامنة) وقبل ذهابه الى عمله، النهر وأسماك الكمة.. هل كان يستطيع ألا يأخذ منها؟ في الواقع كان يكفيه أن يرمي بصنارته ويأخذ منها، فأسمك الكمة تعض الطعم دون أن يساورها الشك. وعندما رأى أن ذلك كان سهلاً على هذا النحو بواسطة الصنارة، فقد جرب الشبكة، كانت أسماكاً جاهزة تقفز الى الشبكة ورأسها الى الأمام.

وعندما حلت ساعة الانصراف من هناك، كانت سلته قد امتلأت فبحث عن طريق وهو يصعد من النهر.

● ايه، أنت!

من كوع النهر بين أشجار الحور كان هناك شخص واقف يلبس قبعة الحراس وينظر اليه بخبث.

– أنا؟ ماذا هناك..؟

قالها ماركو فالدو متنبهاً لتهديد مجهول ضد أسماكك.

● اين اصطدت تلك الأسماك؟

– ايه؟ لماذا؟

وقد قفز قلب ماركو فالدو الى حلقه.

● اذا ما اصطدتها هناك من الاسفل ف لترمها على الفور. ألم تر المصنع هناك في الجبل؟

في الواقع أشار الى مبنى طويل كان يبدو حينها بعد انعطاف النهر الى ما وراء أشجار الصفصاف، وهو ينفث دخاناً في الهواء، ويصب في الماء كتلة كثيفة ذات لون لا يصدق، بين اللون الفيروزي واللون البنفسجي.

● على الأقل بأي لون رأيت الماء! إنه مصنع للدهانات والنهر مسمم بفعل ذلك اللون الأزرق، وكذلك الأسماك أيضاً. ف لترمها على الفور، وإلا فسأصدرها منك!

أراد ماركو فالدو ساعتها أن يرميها بعيداً وبأسرع ما يمكن، وأن ينزل

حملها عن ظهره، وكأنما كانت رائجتها فقط ستكفي لتسميمه، ولكنه لم يكن ليرغب في الظهور أمام الحارس على تلك الصورة المخجلة.

● وإذا ما كنت قد اصطدتها هناك الى الأعلى بأكثر؟

– اذا فهذا شيء مختلف تماماً، إذ أنني سأصايرها منك، وسأغرملك بغرامة. فإلى ما فوق المصنع، هناك مركز لإكثار السمك، ألا ترى اللافتة؟
– أنا، حقاً.

وأسرع ماركو فالدو يقول: إنني أحمل خيط الصنارة هكذا فقط لأجعل الأصدقاء يعتقدون أنني صياد أما الأسماك فقد ابتعتها من بائع سمك في البلدة القريبة من هنا.

● إذاً لا تقل شيئاً، يبقى عليك فقط أن تدفع الرسم لتنقلها الى المدينة فنحن هنا خارج حزامها.

كان ماركو فالدو قد فتح سلته وقلبها باتجاه النهر، لا بد وأن احدى سمكات الكمة كانت لا تزال حية. لأنها خرجت وهي تختلج وكلها فرح.

الثدي العاري

من مجموعة بالومار

كان السيد بالومار يسير على امتداد شاطئ منعزل، يلتقي بندرة من المستحمين. كانت هناك امرأة شابة مستلقية على المنبسط الرملي تأخذ حماماً شمسياً عارية الثدي. أدار بالومار، الرجل الرزين، نظره نحو الأفق البحري. فهو يعلم أن النساء في ظروف مشابهة، وعند اقتراب غريب ما منهن، عادة ما يهرعن إلى تغطية أنفسهن، وهذا ما يبدو له غير جميل ذلك لأنه مزعج للمستحمة التي تأخذ حمام الشمس هادئة، ولأن الرجل الذي يمر يشعر بنفسه أنه معكراً للصفو، ولأن تحريم العري يُوكِّدُ هكذا ضمناً، ذلك لأن الأعراف المحترمة من طرف واحد تشيع انعدام الأمان وتشويشاً في السلوك بدلاً من الحرية والصراحة.

لهذا فإنه ما أن يرى غيمة برونزية وردية لجذع أنثوي عار ترتسم جانبياً من بعيد حتى يسرع ليرفع رأسه بشكل يبقى معه مسار نظرتة معلقاً في الفراغ، ويضمن باحترامه الحضاري الحدود اللامرئية التي تحيط بالأشخاص.

وفكر متابعاً إلى الأمام، وما أن أصبح الأفق فارغاً، مستعيداً الحركة الحرة لمقلتيه: لكنني بتصرفي هكذا أظهر رفضاً للرؤية، أي أنني أيضاً أنتهي بتقوية العرف الذي يعتبر رؤية الثدي أمراً محرماً، أو أنني أخلق نوعاً من حمالات الثدي الذهنية معلقاً ما بين عينيّ وذلك الصدر الذي بدا لي غضاً ومسرراً للنظر بفعل الإنبهار الذي وصلني منه على تخوم حقلي البصري. وبالخلاصة إن عدم نظريّ إليه يفترض أنني أفكر بذلك العري، وأني منشغل به وهذا في الحقيقة أيضاً سلوك غير رزين ومتخلف.

عائداً من نزهته، مرّ بالومار ثانية أمام تلك المستحمة وضبط في هذه المرة نظرتة ثابتة إلى أمامه بشكل تبلغ فيه وبتماثل مُنصف، زبد الأمواج المتراجعة، وهياكل الزوارق المسحوبة نحو اليايسة، ووشاح الزبد الممتد على المنبسط الرمي، والقمر الممتلئ ذا البشرة الأكثر بياضاً بهالة حلمته السمراء، وجانب الشاطئ في الضباب، الرمادي قبالة السماء.

فكر راضياً عن نفسه متابعاً المسير: ها أنذا قد نجحت بجعل الثدي وكأنه أمْتَصَّ بأكمله من قبل المشهد الطبيعي، وكذلك أيضاً بالأثقل نظرتي أكثر مما تنقله نظرة نورس أو سمكة عُبر.

وفكر متأملاً أيضاً: لكن هل سيكون من الصواب أن أتصرف هكذا؟ أوليس إنزالاً للكائن الإنساني وضعه على مستوى الأشياء واعتباره موضوعاً، وما هو أسوأ من ذلك أن نعتبر موضوعاً ما هو محدد من الجنس الأنثوي في الكائن؟ ربما لست مخلداً العادة القديمة القائلة بالتفوق الذكري التي أصبحت قاسية مع السنين بغطرسة اعتيادية؟

استدار ورجع أدراجه. وحينها ألقى نظرتة على الشاطئ بموضوعية متجردة، راح يتصرف بطريقة يُلاحظ فيها انقطاعاً واستبعاداً أشبه بومض البرق ما أن يدخل صدر المرأة حقل رؤيته. فتتقدم النظرة إلى أن تلامس الجلد المشدود، ثم تحيد عنه، وكأنما تميزُ بارتعاش خفيف القوام المختلف للرؤية والقيمة الخاصة التي تكتسبها، وللحظة تبقى معلقة وسط الهواء واصفة التكور الذي يرافق بروز الثدي عن بعد ما، لا هروباً ولكن أيضاً وقايةً كي تعاود بعدئذٍ مجراها وكأن شيئاً لم يحدث.

وفكر بالومار: هكذا، أعتقد أن موقفي يبدو واضحاً جداً، بدون تفسيرات سوء فهم محتملة. لكن تطبيق النظرة هذا ألا يمكن أن يُفهم في نهاية الأمر على أنه موقف متعالٍ وسوء تقدير لما هو ثديي ولما يعنيه، والاحتفاظ به بطريقة ما على طرف مهمل، وعلى الهامش أو بين قوسين؟ وها أنذا ما أزال عائداً أيضاً لأبعد الثدي إلى الظليل حيث احتفظوا به لقرون من التحفظ الجنسي البشري، ومن الإشتهاء كخطيئة.

إن تفسيراً مثل ذلك التفسير يتعارض مع أفضل نوايا بالومار الذي ينتمي الى جيل ناضج، يرتبط لديه عري الصدر الأنثوي مع فكرة حياة الحب الحميمي

الخاص. ومع ذلك حياً بمحاياة هذا التغيير في العادات سواء بما يعنيه كانعكاس لعقلية أكثر انفتاحاً في المجتمع، أو بقدر ما يفلح ذلك المشاهد على الأخص يجعله يُسرُّ له. إن هذا التشجيع النزيه هو ما كان يريد أن ينجح بالتعبير عنه من خلال نظرتة.

استدار نصف دورة. وتحرك أيضاً بخطى واثقة نحو المرأة المستقلية تحت الشمس. توقفت نظرتة وهي ترى المنظر العام متلألئاً بشهوة، توقفت عند الثدي باعتبار خاص، لكنها سرعان ما هرعت لتشرکه في وثوب رفق واعتراف بالجميل للكل، للشمس والسماء، ولأشجار الصنوبر المنحنية والكثيب، والرملة، وصخور الشاطئ والطحالب وللكون الذي يدور حول هالتي الجلد المتوجتين.

لا بد وأن هذا كان كافياً ليطمئن المستحمة المنفردة بشكل نهائي وليزيل من حقلها الأوهام الضالة. لكنه ما كاد يعود للاقتراب منها حتى تراها نهضت فجأة وغطت جسدها متأففة وابتعدت هازة كتفيتها بعصبية وكأنها هاربة من إلحاح هجاء مضايق.

وختم بالومار قائلاً بمرارة: إن عادة السلوك الخاطيء غير المفيدة تمنعنا من أن نثمن النوايا الأكثر إلهاماً بقيمتها الصحيحة.

قراءة موجة

من مجموعة بالومار

كان البحر متموجاً وأمواج صغيرة تنكسر على الشاطئ الرمي، والسيد بالومار واقفاً على الشاطئ ينظر الى موجة. ولم يكن مستغرقاً في تأمله للموج... لم يكن مستغرقاً لأنه يعلم جيداً ما يفعله، فهو يريد النظر الى موجة وينظر اليها. لم يكن يتأمل لأن التأمل يحتاج لمزاج ملائم وحالة نفسية مناسبة، ومصادفة خارجية موافقة أيضاً. وعلى الرغم من أنه لم يكن للسيد بالومار أي شيء ضد التأمل من حيث المبدأ إلا أنه لم يتحقق لديه أي من تلك الشروط الثلاثة. وفي نهاية الأمر ليست «الأمواج» الشيء الذي ينوي النظر اليه ولكن يريد موجة مفردة فحسب. ولهذا فهو يحدد سلفاً موضوعاً محدداً ودقيقاً لكل تصرف من تصرفاته رغبة منه بتجنب الأحاسيس المبهمة.

رأى السيد بالومار موجة تظهر من بعيد، تكبر وتقترب وتغير شكلها ولونها وتتكور على نفسها وتغرق وتتلاشى وتندفق من جديد. كان بإمكانه عند هذه النقطة أن يقنع نفسه أنه قد وصل بعمليته الى نهايتها المفترضة وأن ينصرف. ولكن عزل موجة واحدة، بفصلها عن الموجة التي تتبعها في الحال وتبدو وكأنها تدفعها وعندما تصل اليها وتقلبها، لهو أمر شديد الصعوبة، كما هو أمر فصلها عن الموجة التي تسبقها والتي تبدو كأنها تجرها خلفها نحو الشاطئ إلا إذا ما انقلبت عليها وكأنما تريد ايقافها. وإذا ما اعتبرت بعد ذلك، كل موجة بمعنى الاتساع موازية للشاطئ فإن من الصعب تقدير الى أي حد تمتد الجبهة التي تتقدم باستمرار، وأين تنفصل وتتجزأ الى أمواج مستقلة بذاتها مميزة بسرعتها، وشكلها، وقوتها، ووجهتها.

وأخيراً لا يمكننا مراقبة موجة دون أن نأخذ بالحسبان المظاهر المعقدة التي تتسابق لتشكيلها وكذلك تلك المظاهر المعقدة التي تخلقها الموجة بدورها.

إن هذه المظاهر تختلف باستمرار ولهذا فإن موجة ما هي دائماً مختلفة عن موجة أخرى. ولكن من الحقيقة أيضاً أن كل موجة هي مساوية لموجة أخرى حتى ولو لم تكن تلاصقها أو تلحقها على الفور. وأخيراً فإن هناك بعض الأشكال والحالات التي تتكرر مع أنها موزعة بشكل غير منتظم سواء في حيز المكان والزمان. ولأن ما ينوي السيد بالومار فعله في هذه اللحظة وبكل بساطة هو أن يرى موجة، أي أن يجمع كل مكوناتها المترامنة دون اهمال أي منها، فسوف تتركز نظرتة على حركة الماء التي ترتطم بالشاطئ حتى يستطيع تسجيل مظاهر لم يكن قد أدركها من قبل، وحالما سيدرك أن الصور تتكرر فإنه سيعلم أنه رأى كل ما أراد رؤيته وسيستطيع التوقف عندها.

يميل السيد بالومار، الرجل العصبي الذي يعيش في عالم مجنون ومزدحم، الى تخفيف علاقاته الخاصة مع العالم الخارجي، وليحمي نفسه من الانهك العصبي العام فإنه يحاول بقدر استطاعته ابقاء أحاسيسه تحت المراقبة.

انتصبت ذروة الموجة المتقدمة في نقطة أكثر من انتصابها في مواضع أخرى، ومن هناك بدأت تزيد وتنثني بياضاً حتى إذا ما وصلت الى مسافة معينة من الشاطئ وجد الزبد الوقت الكافي للانطواء على نفسه والاختفاء من جديد وكأنه ابتلع، وفي اللحظة ذاتها يعود ليغزو كل شيء. ولكن في هذه المرة يندفع من الأسفل كسجادة بيضاء تعود لتطفو على الشاطئ لاستقبال الموجة اللآحقة. ولكنه عندما ينتظر أن تتدحرج الموجة على السجادة أدرك أنه لم يعد هناك موجة وإنما السجادة فقط، وكذلك هذه أيضاً سرعان ما تختفي وتصبح رملة مبللة متألئة تنسحب بسرعة وكأنما يدفعها تقدم الرمل الجاف الكثيف الذي يدفع للأمام تخمه المتموج. وفي نفس الوقت يجب اعتبار جبهة اللسان البحري - حيث تنقسم الموجة الى جناحين يذهب أحدهما من اليمين الى اليسار والآخر بالعكس باتجاه الشاطئ - نقطة الانطلاق والوصول لتباعدهما وتلاقيهما هذه النقطة المقعرة التي تتبع تقدم الجناحين ولكنها تبقى محجوزة وراءهما وعرضة لتراكبهما المتعاقب حتى تستدرك بموجة أخرى أكثر منها قوة وتتعرض بدورها أيضاً لمشكلة التباعد والتلاقي وبعدهما بموجة أخرى أكثر قوة أيضاً تحل العقدة مكسرة إياها.

أخذاً شكل رسم الموج، يدخل الشاطئ في المياه رؤوساً غير واضحة تطول بطبقات مبعثرة من الرمل تشكلها التيارات وتبعثرها مع كل مد وجزر.

اختار السيد بالومار احدى هذه الألسنة الرملية الواطئة كنقطة مراقبة لأن الأمواج ترتطم عليها بميل من جهة وأخرى قافزة على سطحها نصف المغمور وتلتقي مع تلك الأمواج القادمة من الجهة الأخرى.

وهكذا يجب إذاً، أن نأخذ بالحسبان هذه الدفعات المتضاربة الاتجاهات التي تتوازن الى حد ما وتتجمع الى حد ما وينتج تكسر عام لكل الدفعات، والدفعات المضادة في تمدد الزيد المعتاد، من أجل فهم مم تتشكل موجة ما.

حاول السيد بالومار الآن تحديد حقل مراقبته. فإذا ما مثلت أمامه لوحة ولنقل بطول عشرة أمتار من الشاطئ وعرض عشرة أمتار من البحر فإنه يستطيع القيام بإحصاء كل حركات الأمواج المتكررة ضمنها بترددات مختلفة خلال فاصل ما من الزمن. وتكمن الصعوبة في تحديد تخوم هذه اللوحة لأنه فيما لو أنه اعتبر مثلاً الخط الناجم عن موجة تتقدم نحو الطرف الأكثر بعداً عنه فإن هذا الخط باقترابه نحوه وانتصابه أمامه يخفي عن عينيه كل ما يجري خلفه. وهكذا فإن الفضاء المتفحص ينقلب ويتحطم في الوقت نفسه.

ومهما يكن من أمر فإن السيد بالومار لا ييأس ويعتقد في كل لحظة أنه نجح برؤية كل ما استطاع رؤيته من نقطة مراقبته. ولكن بعد ذلك كان يظهر له دائماً شيء ما لم يكن قد أخذه بحسابه.

ولولا تلهفه للوصول الى نتيجة كاملة ونهائية لعمليته المرئية لكان النظر للأمواج بالنسبة له رياضة مريحة جداً ولأمكنه ذلك أيضاً أنقاذه من الانهاك العصبي وأزمات القلب والقرحة. ولربما كان مفتاحاً للسيطرة على تعقيد العالم وتخفيفه حتى الآلية الأكثر بساطة.

لكن أية محاولة لتعريف هذا النموذج يجب أن تأخذ بحسبانها موجة طويلة تظهر بغتة باتجاه عمودي على تكسر الأمواج ومواز للشاطئ وتُدفع أمامها ذروة مستمرة بارزة بصعوبة.

وكانت قفزات الأمواج التي تتشابك بسرعة نحو الشاطئ لا تعيق الانطلاق المتشابه لهذه الذروة المتماسكة التي تقطعها بزواوية قائمة ولا يعرف الى أين تذهب، ولا من أين تأتي. وربما كان خيط من الهواء الشرقي هو الذي يحرك سطح البحر بشكل متعارض مع الدفعة العميقة الآتية من كميات مياه عرض البحر.

ولكن هذه الموجة التي تولد من الهواء تجمع أيضاً في طريقها الدفعات المائلة التي تولد من الماء وتحيدها عن مجراها وتضعها في اتجاهها وتحملها معها وهكذا تتابع نموها وتزيد من قوتها الى أن يهدئها التصادم مع الأمواج المعاكسة شيئاً فشيئاً، حتى يجعلها تختفي. أو ربما يديرها لتختلط باحدى سلالات الأمواج المائلة فترطم بالشاطئ معهن.

كان تركيز الانتباه على مظهر ما يجعل هذا المظهر يقفز أول الأمر ويغزو اللوحة كما في بعض الرسوم التي يكفي أن نغمض العينين وعند إعادة فتحهما نرى أن المنظور العام قد تغير. والآن وفي تصالب ذرى الأمواج هذا، الأمواج الموجهة بشكل مختلف فإن المنظر الشامل يبدو مقسماً الى لوحات صغيرة تتوارد على سطح الماء ثم تختفي وإضافة لذلك فإن لكل موجة قوة تراجعها التي تقف عائقاً، أمام الأمواج التي تباغتتها. وإذا ما ركزنا انتباهنا على هذه الدفعات الآتية من الخلف يبدو وكأن الحركة الحقيقية، هي تلك التي ترحل من الشاطئ وتذهب نحو عرض البحر.

ترى هل كانت النتيجة الحقيقية التي يسعى السيد بالومار للوصول اليها هي جعل الأمواج تسير باتجاه معاكس، وأن يقلب الزمن، ويميز ماهية العالم الحقيقية فيما وراء الاعتيادات الحسية والعقلية؟

لا. لقد وصل به الأمر الى أنه بات يشعر بنوع خفيف من الدوار لا أكثر. وقد انتصر الاصرار الذي يدفع الأمواج نحو الشاطئ التي تضخمت في الواقع كثيراً. ترى هل بدأت الريح تتغير؟ أية مصيبة ستحل لو أن هذه الصورة التي أفلح السيد بالومار بوضعها مجتمعة بدقة تتخرب، وتتكسر، وتتبعثر. وأنه إذا ما نجح فقط باستذكار كل المظاهر مجتمعة فإنه سيستطيع البدء بالمرحلة الثانية من العملية وينشر هذه المعرفة في الكون أجمع.

كان يكفيه ألا يفقد صبره، الشيء الذي لا يحصل متأخراً، ابتعد السيد بالومار على امتداد الشاطئ بأعصاب متوترة مثلما أتى وهو غير متأكد أيضاً من كل شيء أكثر من ذي قبل.

سيف الشمس

من مجموعة بالومار

يتشكل الانعكاس على البحر عندما تميل الشمس للغروب. فتندفع من الأفق البحري نحو الشاطئ بقعة براقية مؤلفة من كثير من التلالوات التي تتماوج ما بين بريق وومض. وتعم زرقه البحر شبكتها وتبدو المراكب البيضاء في النور المعاكس سوداء تفقد معه تماسكها وامتدادها وكأنما استهلكتها تلك البقع المتألقة.

إنها الساعة التي يقوم خلالها السيد بالومار الرجل المتأني باستحمامه المسائي. وما أن يلج الماء وينفصل عن الشاطئ حتى يصبح انعكاس الشمس حساماً لامعاً على الماء ممتداً إليه من الأفق. ويسبح السيد بالومار في السيف. وربما من الأفضل القول أن السيف يبقى أمامه دائماً وعند امتداد باعه ينسحب ولا يدعه يدركه أبداً. وحيثما يمد ساعده نحوه يأخذ البحر لونه المسائي المعتم الذي يمتد من الشاطئ حتى كتفيه.

وبينما كانت الشمس تميل نحو المغيب كان الانعكاس الأبيض المتوهج يتلون بلون الذهب والنحاس. وحيثما تنقل السيد بالومار كان هو نفسه رأس ذلك المثلث المدبب المذهب والسيف يتبعه مشيراً إليه كعقرب ساعة قطبها الشمس.

حاول السيد بالومار التفكير، وربما من الأفضل القول حاولت الأنا الأناينية الفردية المتكبرة: إنها هدية خاصة تصنعها الشمس من أجلي شخصياً. ولكن الأنا الإكتئابية أو المازوخية التي تتعايش مع الأنا الأخرى في ذات الوعاء عارضتها: إن جميع أولئك الذين لهم عيون يرون الانعكاس الذي يتبعهم وإن وهم الأحاسيس والعقل يجعلنا جميعاً سجناء دائماً.

وتدخلت ساكنة أخرى، وهي أناً الثالثة تشاطرهما المكان وأكثر منهما
إنصافاً. قائلة: إنني جزء من الأشخاص ذوي الإحساس والتفكير القادرين
على إقامة علاقة مع الأشعة الشمسية وتفسير وتقييم الأحاسيس والأوهام.

وفي تلك الساعة كان كل مستحم يسبح نحو الغرب يرى خط الضوء الذي
يتجه نحوه لينطفئ أبعد بقليل من النقطة التي يندفع إليها ساعده. كان لكل
واحد انعكاس النور الخاص به والذي له اتجاهه ذاك من أجله وحده ويتنقل
معه.

كانت زرقاء الماء تبدو معتمة أكثر من جانبي الانعكاس فتساءل السيد
بالومار: هل الظلمة هي المسلمة اللاهومية الوحيدة المشتركة لدى الجميع؟
ولكن مع ذلك كان السيف يفرض نفسه أيضاً على عين كل واحد ولم يكن
هناك من مفر للهروب منه.

وتابع تسأوله: هل الشيء الذي نشترك به جميعاً هو فقط ذلك المعطى لكل
واحد منا وكأنه محصور به وحده؟

كانت الألواح الشراعية تنزلق على سطح الماء قاطعة بميلان جوانبها هواء
البر الذي هبّ تلك الساعة. وكانت الأشكال المنتصبة تمسك عمود الشراع
بأذرع مشدودة كرماء السهام كابحة الهواء الذي يصفق بالشراع. وعندما
كانوا يعبرون النور المنعكس تراهم وسط لون الذهب الذي يلف ألوان الشراع
التي تخف حينها. ويبدو المنظر الجانبي للأجسام المعتمة وكأنه دخل الليل.

فكر السابح بالومار: كل هذا لا يحدث على البحر ولا في الشمس وإنما في
رأسي ما بين دارات عيني ودماعي. إنني أستحم في عقلي وهناك فقط يوجد
سيف الضوء هذا. وإن هذا ما يشدني تماماً. هذا هو معدني الذي أستطيع
التعرف إليه بطريقة ما.

وفكر أيضاً: لا أستطيع الوصول إليه فهو هناك أمامي دائماً، ولا يمكن أن
يكون بأن واحد داخلي وشيئاً ما أصبح ضمنه، وإذا ما رأيتة فإنني أبقى
خارجه ويبقى هو في الخارج. تعب ساعدها وخارت قواهما ويمكن القول أن
كل تفكيره بدلاً من أن يزيد متعته بالاستحمام في الانعكاس فهو يزعجه وكأنما
يشعره بنفسه محاصراً وقد اقترب خطأ، أو محكوماً.

وهذه أيضاً مسؤولية لا يستطيع التهرب منها. فالسيف موجود فقط لأنه كان هناك وإذا ما انصرف وعاد كل المستحمين والسابحين إلى الشاطئ، أو لو أنهم أداروا ظهورهم للشمس فقط. أين كان سينتهي السيف؟

كان ذلك الجسر البحري الممتد ما بين عينيه والشمس الأفلة هو الشيء الوحيد الأكثر هشاشة الذي أراد إنقاذه من هذا العالم الذي يتحلل. لم تعد للسيد بالومار رغبة بالسباحة فقد شعر بالبرد ولكنه ما زال يتابع وقد أصبح الآن مجبراً على البقاء في الماء طالما أن الشمس لم تختف.

وفكر عنديذ: إذا ما كنت أرى، وأفكر وأسبح بالانعكاس فذلك لأن الشمس ترسل أشعتها من أقصى الجانب الآخر وإن ما يهم فحسب هو الأصل الذي منه هناك شيء ما لا تستطيع نظرتي تحمله إذا لم يكن شكله مطلقاً مثلما هو في هذا الغروب. وما تبقى ما هو إلا انعكاس بين انعكاسات بما فيها أنا.

مرّ شبح شراع وجرى ظل الرجل كالشجرة بين نشارة براقية وفكر: «بدون الريح لا يمكن لهذا الفخ المصنوع من مفاصل بلاستيكية، وعظم، وأريطة، وحبل شراع من نايلون أن يبقى في الأعلى. وإن الهواء هو الذي يجعل منه زورقاً يبدو ذا غايات ومآرب. ووحده الهواء يعرف إلى أين يمضي اللوح الشراعي والملاح».

يا للعزاء. ماذا لو أنه نجح بإلغاء أناه الجزئية والشكوك من خلال مبدأ مؤكد ينحدر منه كل شيء! مبدأ واحد ومطلق تأخذ منه الأفعال والأشكال أصلاً لها؟ أو ربما مجموعة من المبادئ المتميزة كخطوط القوة التي تتلاقى ببعضها البعض معطية للعالم الذي يبدو وحيداً ثانية بعد ثانية؟.

فكر السيد بالومار متصنعاً الموت: «... من المفهوم أن الهواء وكذلك البحر، وكميات الماء الجارية هي التي تحمل الأجسام العائمة والطافية الصلبة مثلي أنا واللوح».

وفي تلك الساعة تأملت نظرتة المعكوسة الغيوم الهائمة والهضاب المكسوة بالغابات، كذلك فإن أناه إنعكست بتلك العناصر: النار السماوية، والهواء الجاري، والماء المهده والأرض الداعمة. أهذه هي الطبيعة؟ ولكن ليس هناك من وجود لشيء مما يراه في الطبيعة. فالشمس لا تغرب، وليس للبحر ذلك اللون والأشكال هي تلك التي يعرضها الضوء على شبكية العين. وبحركات

غير طبيعية من أطرافه راح يطفو بين الأطياف، وخيالات إنسانية بأوضاع غير طبيعية تتحرك بأوزانها مستغلة لا الهواء وإنما المجرذات الهندسية لزاوية ما بين الهواء وانحراف آلية مصطنعة وهكذا تنزلق على جلد البحر الناعم. أليست الطبيعة موجودة؟.

غرقت أنا السيد بالومار السابحة في عالم منقسم، وفي تقاطع حقول القوى، وفي مساقط إتجاهيه، وفي الحزم الضوئية المستقيمة التي تتقارب وتتباعد وتتكرر. ولكن تبقى داخله نقطة واحدة يوجد فيها كل شيء في عالم آخر كعقدة وخرثرة واحتقان. إنه الاحساس بأنك موجود ولكن باستطاعتك ألا تكون في عالم يستطيع ألا يكون ولكنه موجود.

عكّرت موجة دخيلة مياه البحر الراكدة بفعل زورق ذي محرك فاجأ وجرى بعيداً مخلفاً وراءه زيتاً وقافزاً يبطنه المسطح. وانطوى شراع الإنعكاسات المتحددة والمتغيرة بفعل النفط مناسباً داخل الماء. ولا يمكن أن توضع تلك الكثافة المادية التي افتقدت تحت لمعان الشمس موضع الشك بسبب هذا الحضور الجسدي للإنسان الذي نشر خلف مسيرها المحروقات المتسربة وبقايا الوقود المحترق وفضلات مختلفة مازجة ومضاعفة الحياة والموت حول نفسها.

فكر بالومار: هذا هو موطني الذي لا أقبل أن يوضع موضع قبول أو استبعاد لأنني لا أستطيع أن أكون إلا وسطه هنا فقط... ولكن ماذا لو كان مصير الحياة على الأرض قد حدد مسبقاً؟. وإذا أصبح الجري نحو الموت أكثر قوة من أي إمكانية للاسترجاع؟.

انسابت موجة كبيرة ووحيدة حتى اصطدمت بالشاطئ حيث كان يبدو هناك شاطئ من رمل، وحصى، وطحالب، وقواقع صغيرة جداً من الصدف. وما هو رحيل الماء يبدي الآن بعضاً من الشاطئ المزدان بالعلب، والنوى، وبموانع الحمل البلاستيكية، والأسماك الميتة، وزجاجات البلاستيك والأحذية المهترئة، وحقن الأبر، والأغصان السوداء من الشحم.

بعدما سخط السيد بالومار من موجة الزورق الآلي ووجد نفسه مغموراً بموجة النفايات شعر بنفسه فضلة بين الفضلات، جثة تتدرج على شواطئ القمامة في القارات المقابر.

وإذا لم تعد هناك من عين سوى عين الموتى الزجاجية تتفتح على وجوه الكرة الأرضية فإن السيف لن يعود ليلمع ثانية أبداً.

ولو فكرنا بذلك بتمعن فإننا سنجد أن حالة مثل هذه ليست بجديدة فمنذ ملايين من القرون خلت كانت أشعة الشمس تسطع على الماء قبل أن تتواجد العيون القادرة على إدراكها ورؤيتها.

سبح السيد بالومار تحت الماء وخرج وها هو السيف!

ذات يوم خرجت من الماء عين ولقد استطاع السيف الذي كان ينتظرها هناك أن يبرز كامل حدة رأسه الدقيق وروعته المتألقة. وكأنهما خلقا الواحد للآخر السيف والعين. ولربما لم تكن ولادة العين قد ولدت السيف وإنما العكس لأن السيف لم يكن باستطاعته أن يفعل أقل. من العين التي تنظر إليه في عليائه.

وفكر السيد بالومار بالعالم من دونه، بذلك العالم الواسع قبل ولادته. وذلك الأكثر ظلاماً ما بعد موته. وحاول تخيل العالم قبل وجود العيون، أي عين كانت، فكان عالماً سيقى في الغد بسبب المصائب والتآكلات البطيئة عالماً أعمى.

ترى ما الذي يحصل (أو حصل أو سيحصل) في ذلك العالم؟ في مواعده رمى شعاع من الضوء بسهمه من الشمس لينعكس على البحر الهادىء ويتلألأ مع ارتجاج الماء وها هي المادة تصبح ماصة للضوء وتختلف عن بعضها بأنسجة حيوية. وتزهو فجأة أو تتفتح ثانية عين أو مجموعة من العيون.

العالم ينظر إلى العالم

من مجموعة بالومار

على إثر سلسلة من المغامرات الفكرية التي لا تستحق الذكر، قرر السيد بالومار أن النظر للأشياء من الخارج سيكون نشاطه الرئيسي. ولكونه قصير البصر، شارد الذهن وانطوائياً فإنه يبدو وكأنه ينتمي بمزاجه إلى ذلك النموذج البشري الذي يعرف عادة بالمراقب. ومع ذلك فقد حدث دائماً أن بدت له بعض الأشياء، كجدار من الحجارة، قوقعة المحار، ورقة شجر وإبريق الشاي وقدمت نفسها له وكأنها تطلب منه انتباهاً دقيقاً ومطوياً. وبينهم بمراقبتها تقريباً دون أن يأخذها بحسبانته وتبدأ نظرتهم بتتبع كافة التفاصيل ولا يفلح بعدها بالانفصال عنها. وقرر السيد بالومار من الآن فصاعداً متابعة انتباهه. أولاً بالأمر الذي تترك هذه الدعوات التي تصله من الأشياء تفوته وثانياً بأن يعطي لعملية المراقبة الأهمية التي تستحقها.

عند هذه النقطة حدثت فجأة أول لحظة من الأزمات. حاول السيد بالومار وهو متأكد من أن العالم سيكشف له من الآن فصاعداً عن غنى لا محدود من الأشياء التي ينظر إليها، وتوقف ثم تابع مرحلة ثانية كان مقتنعاً فيها بأن الأشياء التي يجب النظر إليها هي بعض الأشياء وليست الأخرى التي عليه أن يبحث عنها. ومن أجل هذا فقد توجب عليه أن يواجه في كل مرة مشاكل في الاختيار، الاستبعاد، تسلسل الأفضليات. وسرعان ما تنبه إلى أنه يتذوق كل شيء مثلما كان يضع في الوسط «أناه» وكل المشاكل التي تحكم علاقته بأناه. ولكن كيف له أن ينظر لشيء ما تاركاً أناه علي الطرف؟ ولمن هاتان العينان اللتان تنتظران؟ يُعتقد عادة أن تكون الأنا أحداً ما يطل بوجهه من عينيه كما يطل من حافة النافذة وينظر للعالم الممتد بكامل سعته أمامه. فإذاً هناك نافذة تطل على العالم، ومن الطرف الآخر هناك العالم، ومن هنا من العالم دائماً...

ما الشيء الآخر الذي تريدون أن يكون؟ بقليل من جهد التركيز أفلح بالومار بتغيير مكان العالم من هناك في الأمام ووضعه مطلاً على حافة النافذة. إذاً ماذا بقي خارج النافذة؟ العالم أيضاً ما زال هناك، وقد انقسم إلى عالم ينظر وعالم يُنظر إليه، وهو المعروف أيضاً «الأنا» أي بالسيد بالومار، أليس هو أيضاً جزءاً من العالم الذي ينظر إلى جزء آخر من العالم؟ أو ربما، وبالنظر لأن هناك عالماً من هنا وعالماً من هناك خارج النافذة فإنه لا بد وأن «الأنا» ليست شيئاً آخر سوى النافذة التي ينظر العالم للعالم من خلالها. ولكي ينظر إلى نفسه فإن العالم بحاجة لعيني السيد بالومار ونظارتيه.

إذاً سينظر السيد بالومار من الآن فصاعداً إلى الأشياء من الخارج وليس من الداخل، لكن هذا غير كافٍ، سينظر إليها نظرة نابغة من الخارج لا من داخله ويحاول القيام بالتجربة على الفور. الآن ليس هو من ينظر ولكن العالم من الخارج هو الذي ينظر للخارج. ما أن ثبَّت ذلك حتى جال ببصره حوله بانتظار تغير الهيئة العامة، لكن لا... إنه اللون الرمادي المعتاد يومياً الذي يحيط به. ويجب عليه إعادة دراسة كل شيء من البداية.

لا يكفي أن يكون ما هو في الخارج من ينظر إلى الخارج إذ أنه من الشيء المنظور إليه حيث يجب أن ينطلق المسار البصري الذي يربطه بالشيء الذي ينظر.

فمن مدى الأشياء الصامت يجب أن تنطلق إشارة ما، نداء، غمزة عين، شيء يفصل عن الأشياء الأخرى بنية أن يعني شيئاً ما... ما هو؟... نفسه، شيء مسرور بأنه منظور من الأشياء الأخرى فقط عندما يكون مقتنعاً بأنه يعني نفسه ولا شيء آخر وسط الأشياء التي تعني نفسها ولا شيء آخر.

إن مناسبات من هذا النوع لا تتكرر بالتأكيد ولكنها مع ذلك لا بد وأن تظهر عاجلاً أم آجلاً. إذ يكفي أن ننتظر أن تتحقق إحدى تلك المصادفات السعيدة التي يود من خلالها العالم أن ينظر هو أو أن يُنظر إليه في اللحظة ذاتها. ويتواجد السيد بالومار ليمر من هناك وسطها، أو ربما لن يتوجب على السيد بالومار ولا حتى الانتظار لأن هذه الأشياء تحدث فقط عندما ننتظرها بشكل أقل.

الخف غير المتجانس

من مجموعة بالومار

خلال رحلة قام بها إلى إحدى بلدان الشرق. اشترى السيد بالومار خفاً من أحد الأسواق. وعندما عاد إلى بيته جرب أن ينتعله فتبين له أن فردة من الخف أكبر من الفردة الأخرى، ولهذا فهي تسقط من قدمه، تذكر البائع العجوز الجالس على عقبه في عش من أعشاش البازار أمام كومة أخفاف مختلفة القياسات غير مرتبة. رآه بينما كان ينقب في الكومة ليجد له خفاً مناسباً لقدمه وجعله يقيسه ثم شرع ينقب من جديد وأعطاه الفردة المفترضة التي قبلها بدوره دون أن يجربها.

فكر السيد بالومار: «ربما هناك الآن رجل آخر يسير في ذلك البلد منتعلاً خفاً فردتاه غير متجانستين» ورأى ظلاً رقيقاً يجوب الصحراء عارجاً بفردة حذاءٍ تخرج من قدمه مع كل خطوة يخطوها، أو بفردة ضيقة جداً تسجن له قدمه الملتوية.

«ربما كان هو أيضاً يفكر بي في هذه اللحظة، ويتمنى أن يلقاني لتبادل الخف. إن العلاقة التي تربطنا محسوسة وواضحة أكثر من قسم عظيم من العلاقات التي تقوم بين الكائنات الإنسانية، ومع ذلك فإننا لن نلتقي أبداً».

قرر الاستمرار بانتعال هذا الخف غير المتجانس تضامناً مع رفيقه المجهول السيء الحظ، ليبقى على هذه التكاملية النادرة هكذا حية، وعلى انعكاس صدى الخطى العرجاء من قارة إلى أخرى.

تأخر بتمثيل هذه الصورة. لكنه يعلم أنها لا تتطابق مع الحقيقة. إذ أن جرفاً من الأخفاف المخاطة على مجموعات يصل دورياً ليزود كومة البائع العجوز في ذلك البازار. وفي أسفل تلك الكومة سيبقى دائماً زوج غير متجانس،

لكن طالما أن مخزون البائع العجوز لن ينفذ (وربما لن ينفذ إطلاقاً، وإذا مات فإن الحانوت بكل بضاعته سيؤول إلى ورثته وإلى ورثة الورثة)، وسيكفي البحث في الكومة حتى نجد دائماً خفاً يجب أن يصبح متجانساً مع خف آخر. ويمكن أن يتحقق خطأ ما مع مشتر ساهٍ مثله هو، لكن ربما تمر قرون قبل أن تنعكس نتائج هذا الخطأ على أحد مرتادي ذلك البازار العتيق. إن أي عملية تفكك في نظام العالم لا تنعكس لكن الآثار ستبقى خفية وستأخر بالظهور بفعل غبار الأعداد الضخمة الذي تحويه عملياً إمكانيات لامحدودة لتناظرات وتوافقات ومنجزات قرنٍ جديد.

لكن ماذا إن لم يُسفر خطأه إلا عن إلغاء خطأ سابق؟ وإذا ما كان شروده رسولاً لا للفضى وإنما للنظام؟ «ربما أن البائع كان يعلم جيداً بما فعله - فكر السيد بالومار - وقد أوجد، بإعطائه لي ذلك الخف غير المتجانس، علاجاً لتنافر كان يختبئ منذ قرون في تلك الكومة من الأخفاف المنتعلة من أجيال إلى أجيال في ذلك البازار.

ربما كان الرفيق المجهول يعرج في زمان آخر، وأن تناظر خطواتهما يتجاوب ليس فقط من قارة إلى أخرى وإنما أيضاً على بعد قرون من الزمن. وليس من أجل هذا يشعر السيد بالومار بنفسه أقل تضامناً معه. فهو يستمر بجر قدميه بعناء شديد ليمنح العزاء لخياله.

أخيراً يأتي الضراب

كان التيار شبكة من التموجات الخفيفة الشفافة في وسطها الماء الذي يجري. ومن حين لآخر كان تلالؤ ظهر سمكة ترويت ما أشبه بضربات أجنحة فضية على وجه الماء، وسرعان ما كانت تغطس ثانية على الفور بشكل متعرج. قال أحد الرجال: إنه مليء بأسمك الترويت.

– إذا ما ألقينا قنبلة بداخله فإن جميع الأسماك ستطفو جماعات ببطونها إلى الأعلى، قال الآخر ورفع قنبلة من حزامه وبدأ بفك البرغي من عقبها. عندئذٍ تقدم الصبي الذي كان ينظر إليهم، إنه صبي جبلي ذو وجه كالتفاحة،

– أعطني إياها. قال وأخذ البندقية من أحد أولئك الرجال.

– ماذا يريد هذا؟ قال الرجل وهو يريد أن يسحب البندقية منه. لكن الصبي كان يصوب السلاح على الماء وكأنه يبحث عن هدف.

«إذا ما أطلقت النار في الماء فإنك ستخيف الأسماك ولا شيء آخر» كان يريد قولها لكنه لم يتمكن مع ذلك من إنهاؤها. فقد لامست سمكة ترويت سطح الماء بحركة اختلاج. أطلق الصبي عليها طلقة وكأنه كان يتربص بها هناك بالضبط، طفت السمكة على الفور ببطنها الأبيض فقال الرجل: خرقتها.

لقم الصبي السلاح ثانية وأداره حوله. كان الجو نقياً ولطيفاً ومن خلاله كانت تبدو إبر الصنوبر على الأشجار في الضفة الأخرى، وشبكة ماء التيار. قذفت إحدى التموجات بسمكة ترويت أخرى إلى السطح فأطلق النار عليها، فطفت على الفور ميتةً.

كان الرجال ينظرون قليلاً إلى سمكة الترويت وقليلًا إليه. فقالوا:
- إنه يطلق النار جيداً.

كان الصبي ما يزال يحرك فوهة البندقية في الهواء. كم هو غريب أن نكون محاطين بالهواء هكذا، مفصولين عن الأشياء الأخرى بأمطار من الهواء، فكر بذلك، لكنه كان يصوب البندقية في الهواء في خط مستقيم غير مرئي مشدود من فوهة البندقية إلى الهدف، إلى فرخ الباز الذي يتحرك في السماء بجناحيه اللذين كانا يبديان ثابتين. ومع الضغط على الزناد بقي الهواء شفافاً خالياً مثل ذي قبل لكن فرخ الباز طوى جناحيه ووقع مثل حجر هناك في الأسفل عند رأس الخط الآخر. وانبعثت من صمام الخنق المفتوح رائحة البارود الطيبة.

جعلهم يعطونه طلقات أخرى. وكانوا حينها كثرةً ينظرون إليه وهم خلفه على ضفة النهر الصغير. لماذا لا ترى كيزان الصنوبر فوق قمم الأشجار على الضفة الأخرى، ولماذا لا يمكن لمسها؟ ولماذا ذلك البعد الفارغ بينه وبين الأشياء؟ ولماذا تبدو كيزان الصنوبر، التي كانت معه وأمام عينيه، لماذا تبدو بدلاً من ذلك هناك بعيدة عنه؟ مع ذلك صوب البندقية، من المفهوم أن المسافة الفارغة ما هي إلا خدعة، إذ أنه عندما يلمس الزناد يقع في نفس اللحظة كوز الصنوبر مقطوعاً من عنقه. كان حساً بالفراغ أشبه بلمسه. فذلك الفراغ الممتد من سبطانة البندقية والذي يتابع امتداده عبر الهواء ويمتلئ مع الإطلاق كان ينتهي هناك في الأسفل عند كوز الصنوبر أو السنجاب، والحجر الأبيض، وزهرة الخشخاش.

- إن هذا لا يخطيء منها واحداً.

كان الرجال يقولون ذلك ولم تكن لدى أي منهم الجرأة على الضحك.

قال القائد: هل تأتي معنا،...

فأجاب الصبي: وأنتم هل تعطوني البندقية،...

- حسناً، هذا مفهوم.

ذهب معهم.

رحل بمزودة ملأى بالتفاح وقرصين من الجبن. كانت البلدة تبدو بقعةً من

الزرقة والتبن والروث البقري في قعر الوادي. والرحيل جميلاً لأنه مع كل مرحلة منه تُرى أشياء جديدة، أشجار غنية بكيزان الصنوبر والطيور التي تطير على الأغصان، وحزاز الصغر على الصخر، وكلها أشياء في دائرة الأبعاد الخداعة، الأبعاد التي كان إطلاق النار يملأها مبدداً الهواء ضمنها.

قالوا له: لكن ليس بالمستطاع إطلاق النار، فهذه أمكنة يجب المرور فيها بصمت، وإن الطلقات تلزم للمعركة. لكن عند لحظة ما عبر أرنب بري مرتعباً من وقع الخطوات، عبر الأرنب الدرب وسط أصواتهم وتحركاتهم وكاد أن يختفي بين الأحراش عندما أوقفته طلقة من الصبي. ضربة جيدة - قال القائد أيضاً - لكن هنا لسنا في الصيد كان يجب عليك ألا تطلق النار حتى لو رأيت طائر تدرج.

لم تمض ساعة واحدة حتى سمعوا، وهم في الرتل، أصوات طلقات أخرى. إنه الصبي من جديد! وجن القائد غضباً وذهب ليلحق به. فوجده يضحك بوجهه الأبيض والأحمر كالتفاحة.

قال: طيور الحجل، وأظهرها له، لقد ارتفع منها رفٌ طائراً من السياج.

- حجل أم جدجد، لقد قلت لك ذلك أعطني البندقية، وإذا ما أغظتني أيضاً فإنك ستعود إلى البلدة.

أبدى الصبي قليلاً من الاستياء، إذ لم يكن من طعم للسير أعزلاً، لكن طالما هو معهم فقد كان بمستطاعه أن يأمل باستعادة البندقية.

عند الليل ناموا في بيت ريفي خشبي. استيقظ الصبي ما أن انجلت السماء قليلاً بينما كان الآخرون ما يزالون نياماً. تناول أفضل بندقية لديهم وملاً المزودة بالطلقات وخرج. كان الجو خجلاً نقياً عند الصباح الباكر، وهناك شجرة توت بعيدة قليلاً عن المنزل. تلك الساعة هي ساعة وصول طيور أبو زريق. وها هو واحد منها أطلق عليه النار وهرع لالتقاطه ثم وضعه في المزودة. ودون أن يتحرك من النقطة التي التقطه فيها بحث عن هدف آخر. سنجاب! جفل من صوت الإطلاق وجرى ليختبئ على قمة شجرة كستناء. مات وكان فأراً كبيراً بذيله الرصاصي الذي يفقد خصلات من الوبر عند ملامسته. ومن تحت شجرة الكستناء في سهل أكثر انخفاضاً، رأى فطراً ساماً أحمر اللون بنقاط بيضاء ففتته بطلقة بندقية وذهب ليرى إذا ما كان قد نال منه تماماً.

كان الذهاب هكذا من هدف لآخر لعبة جميلة ربما استطاع معها أن يجول العالم. رأى حلزوناً ضخماً على حجر فسدد على فخذه، وعندما وصل إلى المكان لم يرَ إلا الحجر المتلم وقليلاً من الروال بلون قوس قزح. وهكذا كان قد ابتعد بنفسه عن البيت الريفي الخشبي نحو سهول مجهولة.

من الحجر رأى شقاً على الجدار، ومن الجدار بركة وضدعة ومن البركة لافتة على الطريق، هدف سهل. من اللافتة تُرى الطريق وهي تمضي متعرجة... وإلى الأسفل منها هناك رجال بملابس عسكرية يتقدمون بأسلحتهم المسددة. وعند ظهور الصبي، ومعه البندقية، وهو يبتسم بوجهه الأبيض والأحمر كالتفاحة صرخوا وصوبوا أسلحتهم نحوه. لكن الصبي كان قد شاهد الأزوار المذهبة على صدر أحد أولئك وأطلق النار مسدداً على زر منها.

سمع صرخة الرجل وأصوات إطلاق النار، رشاً أو دراكاً، التي كانت تصفر فوق رأسه فانبطح أرضاً خلف كوم من الأحجار على طرف الطريق في زاوية مية حيث باستطاعته التحرك أيضاً، لأن الكوم كان طويلاً، وأن يطل برأسه من جهة غير متوقعة، ويرى برق فوهات أسلحة الجنود، ولون بذاتهم الرمادي اللامع ويطلق النار على شارة أو شعار ما عليها، وأن يزحف على الأرض برشاقة إلى جهة أخرى ليطلق النار.

بعد ذلك بقليل سمع طلقات خلف كتفيه لكنها كانت تتجاوزه لتصيب الجنود. إنهم الرفاق الذين أتوا لمؤازرته برشاشاتهم وهم يقولون: لو أن الصبي لم يوقظنا بصوت طلقاته...

أصبح بوسع الصبي، وقد غُطي برمايات رفاقه، أن يسدّد بشكل أفضل. لكن في لحظة ما لامست طلقة خده، التفت فرأى جندياً كان قد وصل إلى الطريق الأعلى. فرمى بنفسه في مجرى صخري ليكون بمأمن لكنه أطلق النار أثناء ذلك وأصاب ليس الجندي وإنما البندقية بشكل جانبي عند المخزن. ثم سمع كيف أن الجندي لم يكن يفلح بتلقيم البندقية ثانية ويلقي بها على الأرض. خرج الصبي عندئذٍ من كمينه وأطلق النار على الجندي الذي فرّ راکضاً فأطاح له بكتافيته.

تبعه، وكان الجندي يختفي حيناً في الغابة ويظهر ثانية على مرمى النار

حيناً آخر. حرق له شبكة الخوذة ثم أصاب حلقة من الحزام. ووصلاً أثناءها وهما يتطاردان إلى وادٍ مجهول حيث لم يعد يسمع ضجيج المعركة. عند حد ما لم يعد الجندي يجد أمامه الغاية وإنما فرجة مضاءة منها حولها انحدار من الأحراش الكثيفة. لكن الصبي كان على وشك الخروج من الغابة فتمكن الجندي بالكاد وقتئذٍ بالاختفاء خلف صخرة كبيرة وسط الفرجة المضاءة وتكور على نفسه واضعاً رأسه بين ركبتيه.

هناك شعر ساعتها بأنه في مأمن فقد كانت لديه قنابل يدوية وليس بإمكان الصبي الاقتراب منه وإنما أن يحرسه فقط ويبقيه على مرمى البندقية كي لا يهرب. فكر لو أنه تمكن من الوصول إلى الأحراش بقرعة منه متزحلقاً نحو المنحدر الكثيف النبات لكان بالتأكيد بمأمن. إنما كانت هناك تلك القطعة الجرداء التي يجب اجتيازها. إلى متى سيبقى الصبي هناك؟ أولن يتوقف أبداً عن الاحتفاظ بسلاحه مصوباً؟ قرر الجندي القيام بتجربة. وضع الخوذة على رأس الحربة وأخرج رأسها خارج الصخرة. طلقة وتدرجت الخوذة على الأرض مثقوبة.

لم يقنط الجندي إذ أن التصويب إلى هناك حول الصخرة كان سهلاً بالتأكيد. لكن لو أنه تحرك بسرعة لكان من المستحيل إصابته. في تلك اللحظة عبر طير السماء بسرعة، ربما كان فرخ ديك. طلقة واحدة وسقط. مسح الجندي العرق عن رقبته. مرّ طير آخر، سمّنة وسقطت تلك الأخرى أيضاً. ابتلع الجندي ريقه. لا بد وأن ذلك المكان هو ممر عبور فقد كانت الطيور تتابع طيرانها، وجميعها مختلفة، وذلك الصبي يستمر بإطلاق النار عليها وإسقاطها. راودت الجندي فكرة: «إذا ما بقي هو منتبهاً للطيور فإنه لن يكون منتبهاً إليّ. وأني سأرمي بنفسى ما أن يطلق النار». لكن ربما من الأفضل القيام بتجربة قبل ذلك. التقت الخوذة وأمسك بها جاهزة على رأس الحربة. مرّ طيران اثنان معاً، هذه المرة كانا زوجاً من طائر الشنقب. كان يؤسف الجندي التفريط بفرصة جميلة بهذا الشكل من أجل التجربة لكنه لم يكن يريد المخاطرة أيضاً. أطلق الصبي النار على طائر شنقب، وعندئذٍ أظهر الجندي الخوذة فسمع صوت الطلقة وشاهد الخوذة تطير في الهواء. عندها شعر الجندي بطعم الرصاص في فمه وانتبه بالكاد إلى أن الطير الآخر أيضاً سقط بطلقة جديدة.

مع ذلك لم يكن عليه القيام بحركات متسرة. فقد كان بمأمن من خلف تلك الصخرة بقنابله اليدوية. فكر لماذا لا يجرب أن يدرك الصبي بقنبلة وهو مختبئ أيضاً؟ تمدد بظهره على الأرض ومدّ ذراعه خلفه منتبهاً إلى الأمام يكشف نفسه، وجمع قواه ورمى بالقنبلة. رمية جميلة ستصل بعيداً، لكن عند منتصف خطها المنحني فجرتها طلقة بندقية في الهواء فاستدار الجندي بوجهه إلى الأرض حتى لا تصل إليه الشظايا.

عندما رفع رأسه كان الغراب قد وصل. هناك طير أسود يحلق بجولات بطيئة في السماء فوقه، غراب على الأغلب. لا بد وأن الصبي سيطلق عليه النار بالتأكيد. لكن الطلقة تأخرت باسماع صوتها. أو ربما أن الغراب كان عالياً جداً؟ مع أنه أصاب طيوراً أكثر علواً وسرعة. في النهاية صوت طلقة. الآن سيسقط الغراب. لا، فقد كان يتابع دورانه البطيء هادئ الأعصاب وبدلاً منه سقط كوز صنوبر من شجرة صنوبر قريبة منه. هل شرع بالرمي على كيزان الصنوبر الآن؟ واحداً تلو الآخر راح يصيب كيزان الصنوبر التي كانت تسقط بضربة خاطفة.

عند كل طلقة كان الجندي ينظر إلى الغراب ويتساءل: هل يسقط؟ لا.. لقد كان الطير الأسود يدور دائماً نحو الأسفل فوقه. أمن الممكن أن الصبي لم يكن يراه؟ ربما لم يكن للغراب من وجود وأنه أحد تخيلاته. ربما أن من سيموت يرى مرور كل الطيور وعندما يرى الغراب فإن هذا يعني أن الساعة قد دنت. مع ذلك من اللازم إعلام الصبي الذي كان مستمراً بإطلاق الرصاص على كيزان الصنوبر. في تلك اللحظة نهض الجندي على قدميه وصرخ بلغته وهو يشير إلى الطائر الأسود بإصبعه: هناك يوجد الغراب!. فأصابته الطلقة تماماً وسط عقاب ذي جناحين منبسطين كان قد طرزه على سترته.

وكان الغراب يهبط ببطء بجولات دائرية.

من الذي وضع اللم في البحر؟

من مجموعة وأخيراً يأتي الغراب

في فيلا رجل المال بومبونيو كان المدعون يحسسون القهوة على الشرفة بينما الجنرال أمالا سونتا يشرح الحرب العالمية الثالثة بالفناجين والملاعق الصغيرة مبتسماً للسيدة بومبونيو وهي تقول: مخيف! - تلك المرأة كانت ذات طبع هادئ.

وحدها فقط كانت السيدة أمالا سونتا تُظهر نفسها ذاهلة وكان بإمكانها أن تسمح لنفسها بذلك بما أن زوجها لشدة شجاعته يريد الحرب الشاملة على أربع جبهات فوراً. وكانت تقول: نتمنى ألا تدوم طويلاً.... إلا أن الصحفي سترابونيو قال متشككاً: ايه، ايه إن كل شي متوقع، تذكر سعادتكم مقالتي الصحفية في السنة الماضية طبعاً؟..

- ايه، ايه وافقه / بومبونيو/ الذي كان يتذكرها لأن سترابونيو قد كتب تلك المقالة بعد حوار أجراه معه.

- ومع هذا يجب ألا نستبعد... قال المحترم أوتشليني الذي لم يفلح بإيضاح المهمة السلمية البابوية قبل وخلال وبعد النزاع المحتوم بشكل واضح.

- بالطبع، بالطبع أيها المحترم... قالها الآخرون بلهجة إسترضائية فقد كانت زوجة المحترم عشيقة بومبونيو ولم يكن بإمكانهم أن يسببوا له كثيراً من الكدر.

كان البحر يلوح من خلال فواصل الستارة المقلمة وهو يفرك جسمه بالشاطئ مثل هرّ مطمئن وجاهل، يتلوى مع ضربات الهواء. دخل خادم وسأل فيما إذا كانوا يريدون أصداف البحر قائلًا: لقد حضر عجوز ومعه سلة من قنقد البحر والمحار الصخني. وانتقل النقاش من خطر الحرب إلى خطر

التيفوس فذكر الجنرال الحوادث الأفريقية كما ذكر سترابونيو بعض الحوادث الأدبية، وكان المحترم يحكم للجميع أنهم على حق وقال بومبوني الذي كان ذا خبرة بأصداف البحر بأن يحضروا العجوز مع بضاعته وأنه سيختار منها بنفسه.

كان العجوز يدعى «باتشي دلي سكولي» وقد تشاحن مع الخادم لأنه لم يكن يريده أن يلمس السلتين النصف مهترئتين والعفتين. كان يسند واحدة منهما على جانبه حتى إذا تحرك للدخول تركها تقع على الأرض، أما الأخرى التي كان يحملها على كتفه فلا بد وأنها كانت ثقيلة جداً لأنه وقف ملتويًا بثقلها وقد وضعها على الأرض بكثير من الإنتباه. كانت مغلقة بقطعة من كيس قماش مربوط حولها.

كان رأس باتشي مغطى بقبعة من الزغب الأبيض لا تختلف عن شعره ولحيته. أما بشرته القليلة العارية فكانت حمراء وكأنما الشمس لم تغلح منذ سنوات بجعلها برونزية وإنما فقط بغليها وسلخها. أما عيناه فقد احمرتا بلون الدم حتى وكأنما الوسخ الأبيض الموجود على الأهداب قد تحول إلى ملح. وكان ذا جسم قصير كجسم صبي ذي أطراف كثيرة العقد تخرج من تمرقات ثوبه العتيق الذي ارتداه على جلده حتى درنما قميص. أما الحذاء فلا بد وأنه قد اصطاده من البحر فقد كان مشوهاً جداً وغير متجانس وأشبه ما يكون بالرق ومن كل شخصه كانت تصدر رائحة قوية للطحالب العفنة. فقال السادة:

— يا له من شخص نموذجي!

ما أن كُشفت السلة الخفيفة حتى راح باتشي دلي سكولي يظهر القنفاذ المتكومة في صرّ أشواكها السوداء اللامعة، وبيديه المتجدتين المغطتين كلتيهما بالنقاط السوداء بفعل الأشواك المغروزة فيهما كان يجسّ القنفاذ وكأنها أرانب يمسكها من أذانها ويقلبها ويعرض لحمها الأحمر الطري. وتحت القنفاذ البحرية كان هناك فاصل من كيس وتحت أيضاً كان الحار الصحنى بأجسامه المفلطحة المزنة باللون الأصفر والأسمر تحت قواقعها ذات اللحية والحزاز الصخري. كان بومبوني يتفحصها ويشمها: ألا تصب الجارير في مناطقكم أبداً؟ ابتسم باتشي من خلال زغبه: أيه لا، فأنا أقبع على رأس لسان البحر هناك، أما المجاري فهي عندكم هنا حيث تستحمون.

غَرَّ المدعون الحديث واشتروا قنفاذ ومحاراً وكلفوا باتشي بأن يزودهم بها أيضاً في الأيام القادمة. حتى أن كلاً منهم أعطاه بطاقة الزيارة الخاصة به بشكل يستطيع معه أن يمر على فيلاتهم. وسألوه:

– وماذا معك في السلة الأخرى؟

غمز العجوز بعينه وقال: ايه، حيوان ضخم. حيوان لا أبيع.

– وماذا ستفعل به إذا؟ هل ستأكله؟

– أكله! إنه حيوان من الحديد.... يجب أن أجد مالكة لأعيده إليه وليتصرف به هو قليلاً. هل أفصحت القول؟

لم يكن الآخرون قد فهموا فشرح لهم: كما تعلمون، إنني أفصل البضاعة التي يحملها البحر إلى الشاطئ عن بعضها البعض فمن جهة الصفيح، ومن جهة أخرى الأحذية، والعظام من جهة أخرى أيضاً. وها قد وصلتني هذه المصيبة فأين أضعها؟ رأيتها في عرض البحر تتقدم إلى الأمام نصفها تحت الماء والنصف الثاني فوقه أخضر بفعل الطحالب وصدئاً. أنا لا أفهم لماذا يضعون هذه المصائب في البحر. أيسركم أن تجدها تحت أسرتكم؟ أو في خزانة ما؟ لقد أخذتها وأبحث الآن عن وضعها وسأقول له: امسكها قليلاً من فضلك!

وبينما كان يقول ذلك كان قد اقترب بحذر من السلة وفك الكيس الذي يغطيها وكشف عن جسم حديدي ضخم مخيف. لم يفهم السادة أول الأمر ولكنهم أتوا بصرخة عندما قال الجنرال أمالا سونتا متعجباً: لغم! فأغمي على السيدة بومبونيو. وانتشر بينهم زعر عظيم فكان بينهم من يجهد نفسه ليهوي للسيدة ومن كان يطمئن: بالتأكيد هو غير هجومي، لقد بقي لسنين كثيرة يتقافزه البحر... وكان من يقول: يجب حمله بعيداً من هنا.... ومن اللازم إيقاف ذلك العجوز. إلا أن العجوز كان قد اختفى ومعه السلة الرهيبة.

نادى مالك المنزل خدمه: هل رأيتموه؟ أين ذهب؟ ولم يكن بإمكان أي منهم أن يؤكد أنه خرج، فتشوا عنه في أرجاء المنزل فتحوا الخزائن والدواليب وأفرغوا القبو!

– فليهرب من يستطيع!، صرخ أمالاسونتا بشكل فجائي وقد شحب لونه، هذا البيت في خطر فلتخرجوا جميعاً!

فاعترض بومبونييو: لماذا بيتي بالذات؟ وبيتك، فلتفكر به أيها الجنرال!
- يجب أن أذهب لأحرس بيتي. قال سترابونييو الذي تذكر بعض مقالاته
الماضية والحالية.

- بيترو! صرخت السيدة بومبونييو وقد غادت إلى وعيها وارتمت على عنق
زوجها.

- بيرينو! صرخت السيدة أوتشلييني وهي ترمي بنفسها أيضاً على عنق
بومبونييو متصادمة مع زوجته الشرعية.

فقال المحترم أوتشلييني: لويزا! هيا بنا إلى البيت!

فقالوا له: أعتقد أن بيتك أكثر أماناً؟ فبسبب السياسة التي ينتهجها
حزبك أنت في خطر أكثر منا!.

إنتابت أوتشلييني ومضة نبوغ فقال: لنخبر الشرطة! انتشرت الشرطة في
المدينة الساحلية بحثاً عن العجوز الذي يحمل اللغم. وحُرس فيلات الممول
بومبونييو والجنرال أمالا سونتتا والصحفي سترابونييو والمحترم أوتشلييني
وفيلات أخرى أيضاً من قبل مفارز مسلحة. كما راحت مفارز نزع الألغام من
الهندسة فتفتشها من القبو إلى السقيفة. وتهيأ ندماء فيلا بومبونييو ليخيموا في
العراء تلك الليلة.

وفي أثناء ذلك كان مهرب يدعى غريمبانتة أفلح دائماً بمعرفة كل شيء
بفضل صداقاته، كان قد بدأ البحث عن باتشي دي سكولي لحسابه الخاص.
كان غريمبانتة هذا شخصاً قوياً يرتدي قبعة بحار من قماش أبيض، وكانت
جميع الأعمال المشبوهة التي تجري في البحر وعلى الشاطئ تمر من بين
يديه. كان سهلاً بالنسبة لغريمبانتة وقد قام بجولة على بعض مطاعم حي
البيوت القديمة أن يلتقي باتشي الذي كان خارجاً ثملاً بعض الشيء وعلى كتفه
سلته الغامضة فدعاه للشراب في مطعم «الأذن المقطوعة» وبدأ يعرض عليه
فكرته بينما كان يصب له ليشرب قال له:

- من غير المفيد أن تعيد اللغم إلى مالكه طالما أنه سيستطيع أن يعيده فوراً
إلى حيث وجدته أنت. وبدلاً من ذلك، إذا ما أصغيت إليّ، سنحصل بواسطته
على كثير من السمك نغزو به كل أسواق الساحل ونصبح من أصحاب الملايين
خلال أيام قليلة.

من اللازم معرفة أن صبيّاً يدعى «زافرينو»، اعتاد أن يقحم نفسه دائماً في كل شيء، كان قد تبع الإثنين إلى مطعم «الأذن المقطوعة» واختبأ تحت الطاولة وفهم على الفور ما كان يعنيه غريمبانتة فهرب فوراً وهرع ليشتيع الأمر بين فقراء حي البيوت القديمة.

– هيه يا، أتريدون أن تأكلوا السمك المقلي اليوم؟

فأطلت من خلال الشبابتك الضيقة والمنعدمة التوازن نساء ضامرات بشعرهن الأشعث وعلى صدورهن أطفالهن، وشيوخ كل بمسماعه ونساء ثرثرات كن يقشرن الهندباء، وشباب عاطلون عن العمل كانوا يحلقون ذقونهم.

– وكيف، وكيف؟.

– اسكتوا، اسكتوا. تعالوا معي. قال لهم زافرينو.

عاد غريمبانتة الذي كان قد مرّ بمنزله ومعه محفظة كمان، ومشى مع العجوز باتشي وسلكا الطريق المحاذية للبحر. وكان فقراء حي البيوت القديمة قد أتوا خلفهما على رؤوس أصابعهم. النساء ما زلن يرتدين صداراتهن وكل منهن بمقلاة على كتفها كالسلاح، والكهول المشلولون في عرباتهم، ومشوهو الحرب على عكازاتهم وجموع من الصبية جميعهم حول تلك الجماعة.

ما أن وصلا إلى صخور لسان البحر حتى ألقى اللغم في البحر ضمن تيار حمله نحو عرض البحر. وأخرج غريمبانتة من محفظة الكمان واحداً من تلك الأسلحة قاتلة البشر التي تطلق النار رشاً وركزها خلف مخبأ من الصخور. وعندما أصبح اللغم على مرمى رمايته بدأ يطلق النار وكانت الطلقات ترسم على سطح الماء قذائف صغيرة. أما الفقراء فقد انبطحوا ببطونهم على الطريق الساحلية وسدوا أذانهم.

وعلى حين غرة ارتفع من البحر عمود كبير من الماء عند النقطة حيث كان اللغم أولاً. كان صوت الانفجار عظيماً تناثر معه زجاج الفيالات قطعاً صغيرة. ووصلت الموجة حتى الطريق وما كادت المياه تهدأ حتى بدأت تصل جماعات من بطون الأسماك البيضاء. كان غريمبانتة وباتشي يضعان أيديهما على شبكة كبيرة عندما اجتاحتها الحشد الذي كان يجري نحو البحر.

نزل الفقراء إلى الماء بثيابهم فكان منهم من يمسك حذاءه بيده مشمراً
بنطاله، ومن نزل بحذائه ويكل شيء، والنساء بتنانيرهن الطافية دوائرأ
وجميعهم منحنون لالتقاط الأسماك الميتة. منهم من يصطادها بيديه. ومنهم
بقيعته، ومنهم بحذائه ومن يضعها في جيبه أو في حقيبة يده. وكان الأولاد
الأسرع بينهم دون عراك فقد كان الجميع متفقين على اقتسام الأسماك
بحصص متساوية، بل أنهم كانوا منشغلين بمساعدة الشيوخ الذين كانوا
ينزلقون بين حين وآخر تحت الماء ويخرجون وقد امتلأت لحاهم بالطحالب
وصغار السلطعون. أما أكثر المحظوظات فقد كن المترهبات اللواتي كن يتابعن
اثنتين اثنتين بمناديلهن المشدودة على سطح الماء ويمشطن البحر كله. أما
البنات الجميلات فقد كن يصرخن بين الحين والآخر: أي، أي... لأن سمكة
ميتة دخلت وارتفعت نحوهن تحت التنورة فيغطس الشباب الصغار تحت الماء
بحثاً عنها لاصطيادها.

وعلى الشاطئء بدأت توقد نيران الطحالب الجافة وظهرت المقاليات وأخرج
كل واحد من جيبه زجاجة صغيرة من الزيت وبدأت تنتشر رائحة القلي. أما
غريمبانتة فقد ولى هارباً حتى لا تقبض عليه الشرطة وبيده ذلك السلاح
مقوض الأحياء. بينما كان باتشي دلي سكولي على العكس منه وسط الآخرين
مع الأسماك والسلطعين والجمبري التي كانت تبرز من تمزقات ثوبه وهو
يأكل سمكة السلطان ابراهيم نيئة لفرط سعادته.

أمنية في تشرين الثاني «نوفمبر»

من مجموعة وأخيراً يأتي الغراب

أدرك البرد المدينة ذات صباح من تشرين الثاني «نوفمبر» بشمس كاذبة معلقة في سماء هادئة وخالية بشكل مخادع، وراح ينتشر في الشوارع الطويلة المستقيمة مثل سيوف كثيرة جاعلاً القطط تجري هاربة من تحت المزاريب لتختبئ في المطابخ التي ما زالت مطفاة. كان الناس يستيقظون متأخرين ولا يفتحون نوافذ بيوتهم ثم يخرجون بمعاطفهم الخفيفة مرددين: سيتأخر الشتاء هذه السنة. ويرتعشون وهم يستنشقون الهواء الجليدي ويفكرون بمؤنهم من الفحم والحطب المعدة منذ الصيف ويهتفون أنفسهم على فطنتهم.

وقد كان يوماً سيئاً بالنسبة للفقراء لأنه لم يعد بوسعهم أن يؤجلوا مشاكل التدفئة والكساء التي وضعوها جانباً حتى ذلك الحين. كما كان يُشاهد في الحدائق صبيان طوال القامة هزليون يرمقون برغبة أشجار الدلب وهم يتجنبون الحراس ويخبئون المناشير المسننة تحت معاطفهم البالية. وتحت ملصق إعلاني عن عمل صالح يعلن عن توزيع كنزات وسراويل داخلية شتوية، كانت هناك مجموعة من الناس وقد تجمهرت لتقرأه.

كان على المستفيدين من مساعدة كنيسة معينة الذهاب لاستلام الملابس من منزل «دون غريللو». وكان «دون غريللو» يسكن بيتاً قديماً ذا سلم ضيق لا بئرفيه، كما أن باب شفته يطل مباشرة على الدرجات الصغيرة بحافة من طرف السطح وقد أشير إليه بالكاد. وعلى هذه الدرجات الصغيرة كان الفقراء يصطفون خلال أيام التوزيع في طابور الواحد منهم تلو الآخر، يترقون الباب المغلق ويسلمون لخادمة الخوري الصلعاء التي تدعو للرتاء شهادات وقسائم، وينتظرون على السلم حتى تعود الخادمة ومعها تلك الصرة الهزيلة. أما في

الداخل فقد كانت تتراءى غرفة ذات أثاث منخور وقديم وفيها دون غريللو الضخم ذو الصوت الأجهش والضاحك وقد جلس خلف طاولة مزدحمة بالصرر حيث كان يدوّن كل شيء في السجلات.

كان الطابور يتكشف أحياناً ومن خلال زوايا السلم عن أرامل خائرات لم يكن ليخرجن أبداً من سقيفاتهن، وشحاذين يسعلون بشكل سيء، ونماذج مغبرة من البشر القادمين من الريف يجرون أقدامهم على الدرجات الصغيرة بأحذيتهم ذات المسامير، وشبان ضامرين بشعرهم الأشعث، ومهاجرين لا أحد يدري من أين جاؤوا بأحذيتهم الشتوية ومعطفهم الصيفية الواقية. كان هذا الخط البطيء المشوّه يمتد في بعض الأحيان نحو الأسفل إلى ما بعد طابق النصاصي حيث كان يفتح باب زجاجي لمحل فراء «فابريتسيا». وقد كان على السيدات الأنيقات اللواتي كن يدخلن إلى «فابريتسيا» ليقسن بأنفسهن ويعدّلن معاطف فراء النمس أو الأستراخان، أن يمررن ملتصقات بالدرايزين كي لا يلامسن المعدمين.

وفي اليوم الذي كانت توزع فيه عند «دون غريللو» القمصان والسراويل الداخلية وقف في الصف رجل عار. كان عتال عجوز طويل وقوي ذو لحية بيضاء مبرقشة ببعض الخصلات التي لم تنزل شقراء وكان يرتدي معطفاً عسكرياً فوق جسده العاري وقد زرره بالكامل وتدثر به وعظام ساقيه العاريتين تنتهي بزوج من الأحذية انتعلها بدون جوارب. كان الناس ينظرون إلى الأسفل ويمكثون ذاهلين بينما هو يضحك ويسخر منهم بوجهه العريض الخمري المنشرح وبغمازتيه وعينيه الزرقاوين تحت أهداب من الشعر الأبيض على جبهته. كان يدعى «بارباغالو» وقد سرقوا له ملابسه عند النهر هذا الصيف بينما كان يعمل برفع الحصى، ومنذ ذلك الحين تابع حياته مرتدياً بعض الأسمال، الأمر الذي كان ينتهي به بين الحين والآخر إلى السجن أو إلى مأوى المستنّين إلا أنهم كانوا يخرجونه من السجن بعد وقت قصير، وكان يهرب من المأوى ويتسكع متشرداً متكاسلاً أو كاداً لساعات هنا وهناك. وكان عدم وجود ملابس لديه عذراً جيداً له ليطلب الصدقة أو ليضع نفسه في السجن عندما لا يكون لديه مكان أفضل يأوي إليه. إلا أن برد ذلك الصباح جعله يقرر أن يطلب لنفسه كسوة، ولهذا فقد أخذ يتجول عارياً بذلك المعطف

فقط. مخيفاً الصبايا معرّضاً نفسه للتوقيف من قبل الحراس عند كل تقاطع طريق بينما كان يتجول بين أماكن توزيع الإعانات الواحد تلو الآخر.

عندما وصل إلى الطابور الواقف على السلم لم يعد أحد يتكلم إلاّ عنه أما هو فقد كان مشغولاً بتشتيت الطابور وتخفيض تعداده ومحاولة المرور إلى الأمام بكل الحيل.

– أجل، أجل أنا عار! هل تروني؟ أو تعتقدون أنني عاري الساقين فقط! أو تريدون أن أفك الأزرار؟ هيّا، إما أن تدعوني أتقدم إلى الأمام وإلاّ فإنني سأفك أزراري! ما هذا البرد! لم أشعر بنفسي حسناً من قبل أبداً! أترغبين بملامستي يا سيدتي لتعرفي ما إذا كنت دافئاً؟ ألا يعطي الخوري سوى السراويل؟ وأنا ماذا سأفعل بها؟ سأخذها وسأبيعها.

إنتهى به الأمر ليجلس ضمن الطابور على درجة هي مصطبة تقع تماماً أمام مخزن الفراء «فابريتسيا» حيث كانت السيدات تذهبن وتأتين مستعرضات معاطف الفراء في أيامها الأولى. وكن يصرخن: حين رؤيتهن الساقين العاريتين للعجوز الجالس: أه...!

– لا تستدع الحراس يا سيدتي، لقد قبضوا عليّ مسبقاً وأرسلوني إلى هنا لأرى إذا ما كانوا سيكسونني. وفضلاً عن ذلك فإنه لا يُرى مني أي شيء فلا تفتعلي الكثير من المشاكل.

كانت السيدات يمضين مسرعات و «بارباغالو» يحس بنفسه ملامساً بتلك الأهداب الناعمة المعطرة بالنفثتين والزنبق فيقول:

– وبر جميل يا سيدتي، لا غبار عليه، سيدفء ما تحته هناك.. كما كان يمد يده إلى كل سيدة كانت تمر بجانبه ويداعب فراء معطفها فتصرخ: النجدة!. أما هو فكان يفرك بها خده مثل القط.

انعقد لدى فابريتسيا ما يشبه الإجتماع إذ لم تعد تجرؤ واحدة من السيدات على الخروج وكن يتساءلن: أيجب استدعاء الحراس؟ ولكن ما العمل إذا ما كانوا هم الذين أرسلوه إلى هنا حتى يكتسي؟؟. وكُنّ بين الحين والآخر يفتحن فرجة من الباب متسائلات: أما زال هناك؟

وذات مرة وضع رأسه في فتحة الباب وهو ما يزال جالساً.

– أوه! ولولا القليل لكان قد أغمي عليهن.

في نهاية الأمر قرر بارباغاللو: فلنذهب للتفاوض. ونهض وقرع جرس محل فابريتسيا ففتحت له عاملتان واحدة شاحبة متوسلة، وصبية ذات جدائل سوداء.

– استدعيا لي السيدات.

– هيا من هنا! قالت الشاحبة. ولكن بارباغاللو لم يدعها تغلق الباب.

– إذهبي أنت وناديهن – قال للأخرى – فاستدارت تلك وذهبت فقال لها بارباغاللو: شاطرة.

وعندما برزت صاحبة المحل مع الزبونات قال لهن العتال:

– كم ستدفعون لي إذا لم أفك أزرار معطفي؟

– ماذا؟

– هيا، بلا مشاكل وبإحدى يديه بدأ بفك أززاره بدءاً من ياقته، والثانية كان قد احتفظ بها ميسوطة فبدأت السيدات يبحثن عن قطع النقود الصغيرة في محافظهن ويعطينها له. وكانت سيدة مسنة مثقلة بالحلي تبدو وكأنها لا تجد قطع النقود لديها وهي تراقبه بعينها الضخمتين المترهلتين بلونهما الأسمر الدكن فتوقف بارباغاللو عن فك الأزرار وقال: إذاً كم ستدفعون لي إذا ما فككت أززاري؟

– أه، أه، أه! انفجرت بها العاملة ذات الجداول ضاحكة. فصرخت بها صاحبة المحل: ليندا!

وضع بارباغاللو النقود في جيبه وخرج قائلاً: سلام يا ليندا. حينها كانت قد سرت في الطابور إشاعة مفادها أنه ليس هناك ثياب كافية للجميع.

– أولاً لي أنا، فأنا عار!

قالها بارباغاللو ونجح بالوقوف في رأس الطابور وعند الباب قالت له خادمة الخوري بتضرع: بلا أي شيء تحت!! كيف ذلك! إنتظر، لا لا تدخل!

– دعيني أمر أيتها القيّمة وإلا فسأجعلك تقترفين الخطيئة، أين المحترم؟

ودخل إلى شقة الخوري بين القلوب المقدسة المدماة الموضوعة في أطر

باروكية، والخزائن العالية جداً، والصلبان المنتشرة على الجدران كالطيور السوداء. فنهض «دون غريللو» عن مكتبه وشرع في ضحكة مقهقهة:

– أوه، أوه، أوه! من الذي ألبسك بهذه الطريقة؟ أوه، أوه، أوه....

– قل لي يا أبت هل اليوم، هو يوم توزيع الثياب الداخلية من الفلانيله؟ ولكنني هنا من أجل السراويل فهل عندك منها؟

كان الخوري قد ارتدى على كرسية ذي المسند العالي وهو يضحك بذقنه المزدوجة وكرشه يقفز للأعلى: لا، لا... أوه، أوه، أوه لا ليس لدي منها...

– أنا لا أطلب منك أبداً زوجاً من سراويلك... أريد أن أقول أنني سأبقى هنا حتى تهتف للمطران وتجلب لي زوجاً.

– هو ذاك، هو ذاك يا ولدي. إلى المطران، إذهب إلى المطران أوه... أوه.... وسأعطيك بطاقة مني له.

– بطاقة. والثياب الداخلية؟

– كفى، كفى أوه، أوه، أوه انتظر قليلاً يا ولدي.

وبدأ يقلب بذلات الكنزات والسراويل الداخلية، ولكنه لم يكن يجد من القياسات الكبيرة ما يناسب بارباغاللو. وعندما عثر على القياس الأكبر قال بارباغاللو: سألبسه الآن.

فاستطاعت خادمة الخوري أن تهرب في الوقت المناسب إلى فسحة الدرج قبل أن يخلع رداءه.

ثم بدأ بارتداء البياضات، لم يعد «دون غريللو» ليتوقف عن الضحك وهو يرى ذلك الرأس الشبيه برأس غاريبالدي مشدوداً من الرقبة إلى مفاصل الرسغين، وحتى العرقوبين داخل الكنزة والسروال الداخلي شديدي اللصوق، وبزوج الأحذية في قدميه.

– أي. ي!! صرخ بارباغاللو وانزوى وكأنه تلقى الصدمة.

– ما بك، ما بك يا ولدي؟

– إنها تقرصني، تقرصني في كل مكان... يا للكنزة السيئة التي أعطيتني أيها الموقر؟ إن جسمي يحكني بأكمله!...

– هيا، ... هيا هذا مفهوم فهي جديدة، ثم إنك ستعتادها.
– أي، إن بشرتي ناعمة وقد تعودت الآن أن أبقى عارياً.... أه كم تقرصني.
والتوى ليحك ظهره.

– هيا، هيا يكفي أن تغسلها مرة واحدة وستصبح ناعمة كالحرير... والآن
إذهب إلى العنوان الذي أعطيتك وسيظنرون بأمر منحك بذلةً، هيا - وكان
يدفعه نحو الباب جاعلاً إياه يرتدي معطفه.

لم يعد بارباغاللو يبدي أية مقاومة. فقد كان في تلك اللحظة رجلاً مغلوباً.
أغلق الباب خلفه. وشرع ينزل محنياً منتحباً متفحصاً نفسه. وبدأ جميع
أولئك الذين ما زالوا في الطابور على السلم يسألونه: ماذا فعلوا لك! هل
ضربوك؟ يا للوقاحة، خوري يضرب الفقراء! ولكن، يا للسروال الجميل! وكانوا
ينظرون إلى عظام ساقيه المغلفتين بقماش الفانيلا الأبيض.

كان بارباغاللو يبدو وكأنه قد شاخ عشر سنوات أخرى، وقد انتفخت عيناه
الزرقاوان بالدموع. مرَّ أمام باب متجر الفراء وفجأة استدار وتوقف عن
تأوهه وقرع الباب.

أخرجت العاملة ذات الجداول رأسها من الباب وقالت...

– ولكن...

– أنظري قال لها بارباغاللو وبابتسامة على وجهه الذي ما زال متباكياً أشار
إلى السروال الداخلي الأبيض عند العرقوبين.

فقال الصبية: أوه...

كان قد ولج إلى الداخل: اطلبي لي السيدة، هيا! فذهبت الصبية وبقفزة
واحدة اختبأ بارباغاللو في حجرة جانبية وأقفل على نفسه. حضرت السيدة
فابريتسيا فلم تره فعادت إلى مكانها هازةً رأسها وهي تقول: أنا لا أعرف لماذا
لا يحجرون على المجانين.

ما أن دار المفتاح في القفل حتى نزع بارباغاللو المعطف عن كتفه والكنزة
والحذاء والسروال وتنفس فرحاً، وأخيراً ها هو عار. رأى انعكاس صورته في
مرآة كبيرة فنفخ عضلاته وانحنى بأطرافه، لم تكن هناك تدفئة بل برد زمهري
إلا أنه كان مع ذلك راضياً وبدأ ينظر حوله.

كان قد أغلق على نفسه في مستودع مخزن فابريتسيا. حيث علقت على مشجب طويل بانتظام جميع أنواع الفراء. التمعت عينا العتال العجوز فرحاً. فراء!! وبدأ يمر بيده عليها الواحدة تلو الأخرى وكأنه يعزف على القيثارة. ثم راح يفرك بها كتفه ووجهه. كانت هناك معاطف فراء من النمس الرمادي والأشهب، ومعاطف من الأستراخان ذات النعومة المتناهية، وفراء ثعالب فضية كغيوم ناعمة، فراء السنجاب والسمور، الخفيفة جداً الناعمة، وفراء القنفس البني المتين والقيّم، وفراء الأرانب السذج اللائقة وفراء الماعز الأبيض المبرقش ذو الأهداب الخشنة، وفراء الفهود بلمستها التي تشيع القشعريرة. تنبه بارباغاللو إلى أن أسنانه كانت تصطك من البرد. فتناول سترة من فراء الحملان وقاسها. كانت تبدو عليه وكأنها خيطة له خصيصاً ثم أحاط جانبيه بفراء ثعلب محرراً ذيله الأصهب كالتنورة. بعد ذلك تدثر بمعطف من فراء (الديغ ديغ) الذي لا بد وأنه خيط لامرأة رائعة الجمال لا مثيل لها. ولنعمومته الشديدة استطاع أن يغطيه بأكمله. كما وجد زوجاً من الأحذية الطويلة المبطنه بفراء القنفس وقبعة جميلة أيضاً. حينها كان على أحسن حال ووضع فروة اليدين وأصبح على أحسن حال. فتبختر أمام المرأة لفترة من الزمن ولم يعد ليفلح بتمييز ما كان لحية وما كان وبر حيوان.

كان المشجب ما يزال مكتظاً بمعاطف الفراء فرماها بارباغاللو على الأرض الواحد تلو الآخر حتى أمّن تحته سريراً واسعاً ووثيراً يغرق فيه. وحينها تمدد وأسقط فوقه كالجرف جميع معاطف الفراء التي كانت قد بقيت. كان هناك دفء من الخطأ الاستسلام للنوم فيه إلا أنه كان من اللذة بحيث يسترخي المرء فيه... قاوم العتال العجوز قليلاً ثم غرق بعدئذٍ في نوم هادئ بلا أحلام.

استيقظ ورأى الليل من النافذة وكل ما حوله في سكون. كان محل الفراء مغلقاً بالتأكد ومن يدري كيف كان سيستطيع الخروج. أرهف السمع فبدأ له صوت سعال في الحجرة المجاورة، ومن فتحة القفل كان يتسرب الضوء.

نهض متبرجاً بمعاطف القيزون والثعالب والظباء والقبعات وفتح الباب ببطء. كانت العاملة ذات الجداول تخطط في ضوء مصباح وهي منحنية على طاولة صغيرة. ونظراً لقيمة البضائع الموجودة في المخزن فإن السيدة باتريتسيا كانت تبقى فتاةً للنوم في سرير صغير بالمشغل حتى تستطيع إعطاء الإنذار في حالة السرقة.

– ليندا، قال بارباغاللو. فحملت الفتاة بعينيها ورأت في دائرة النور الخفيف ذلك الدب البشري الضخم بيديه المتصالبتين داخل قروة الديدن المصنوعة من فراء الأستراخان وقالت:

– ... جميل جداً...

خطا بارباغاللو بضع خطوات إلى الأمام والخلف متبختراً كالطاووس، كعارضة أزياء.

فقالت ليندا: ... لكنني الآن يجب أن أخبر الشرطة.

– الشرطة! – غضب بارباغاللو وقال: لكنني لا أسرق أبداً، ماذا سأفعل بها؟ ليس بوسعي بكل تأكيد أن أتجول هكذا في الطرقات. لقد أتيت إلى هنا فقط كي أنزع الكنزة التي تحكني.

اتفقا على أن يمضي الليل وأن يرحل من هناك عند الصباح الباكر. كما أن ليندا كانت تعلم كيفية غسل الثياب بطريقة تجعلها لا تقرص.

ساعدها بارباغاللو بعصرها ووضع الحبل حتى تنشرها قرب مدفأة كهربائية. وكان لدى ليندا بعض التفاح الكندي فأكلت منه. ثم قال بارباغاللو: لنرى قليلاً كيف تبدين بمعاطف الفراء هذه. وجعلها تجربها كلها وبجميع المقاسات بجداولها ويشعرها المنساب، وتبادلا الإنطباعات حول نعومة وطراوة مختلف الأنواع على البشرة العارية. وفي النهاية بنيا كوخاً كله من الفراء، كوخاً كبيراً ودخلا ليناما فيه.

عندما استيقظت ليندا وجدته أنه كان قد أستيقظ قبلها وكان يرتدي الكنزة والسروال الداخلي. ومن النافذة كانت خيوط الفجر تدخل.

– هل جفت الملابس؟

– ما تزال رطبة قليلاً ولكن يجب عليّ أن أرحل.

– أما زالت تقرص؟

– بل إنني أحس بنفسي كالبايا.

ثم ساعد ليندا على ترتيب المخزن بأكمله وارتدى معطفه العسكري وحياتها عند الباب.

مكثت ليندا تنظر إليه بينما كان يبتعد وخط السروال الأبيض يبدو بين المعطف والحذاء، وعفرة شعره المزهوة في برد الفجر.

لم تكن لدى بارباغاللو النية للذهاب إلى المطران للحصول على البذلة فقد خطرت له فكرة التجوال في الساحات والبلدان في طقم التياب الداخلية كي يستعرض قواه.

الذهاب الى مقر القيادة

من مجموعة وأخيراً يأتي الغراب

كانت الغابة مبعثرة، شبه مدمرة بفعل الحرائق، رمادية بجذوع الأشجار المحترقة ومحمرة بأبر الصنوبر الجافة. وصل إليها الرجل المسلح والرجل الأعزل نازلين بتعرج ما بين الأشجار.

كان المسلح يقول: إلى مقر القيادة، نحن ذاهبان إلى مقر القيادة. لنقل نصف ساعة من المسير على أبعد حد.

– وبعد ذلك؟

– وبعد ذلك ماذا؟

– أريد أن أقول: لا أدري إذا ما كانوا سيسمحون لي أن أذهب بعد ذلك.

قالها الرجل الأعزل وهو يصغي بانتباه إلى كل إجابة مقطوعاً مقطوعاً وكأنه يبحث عن إشارة زائفة.

– بكل تأكيد سيدعونك تذهب.

قال له المسلح وأردف: سأعطيهم وثيقة الكتيبة وسيضعون إشارة على السجل وعندها سيكون بإمكانك العودة إلى البيت.

كان الأعزل يهز رأسه متشائماً: أه، إنها أشياء مطولة، أفهم... كان يقولها ربما فقط كي يسمعها مكررة.

– قلت لك سيتركونك على الفور.

– كنت أحسب حسابي – أضاف – كنت أحسب حساب أنني سأكون في البيت هذا المساء. صبراً..

فأجابه المسلح: أقول لك إنك ستصل إليه، تنتظر بما يكفيهم لكتابة المحضر وسيتركونك بعد ذلك. من اللازم جيداً أن يشطبوا اسمك من سجل الجواسيس.

– أليكم سجل للجواسيس؟

– بالتأكيد لدينا، فنحن نعرف كل أولئك الذين يتجسسون وسنمسك بهم واحداً تلو الآخر.

– وفيه اسمي؟

– حقاً، فيه اسمك أيضاً ومن الضروري الآن أن يشطبهوه وإلا فإنك ستعرض للإلقاء القبض عليك مرة أخرى.

– إذاً من الضروري تماماً أن أذهب أنا إلى هناك، أن أشرح لهم القصة كلها.

– ها نحن ذاهبان. من الواجب طبعاً أن ينظروا وأن يدققوا.

– ولكن الآن، قال الرجل الأعزل، الآن تعلمون أنني من جماعتكم وأنني لم أتجسس أبداً.

– بالضبط. نعرف ذلك الآن، وأنت الآن مطمئن.

وافقه الأعزل وهو ينظر حوله إذ كانا داخل فرجة كبيرة مضاءة من الغابة فيها أشجار الصنوبر والأرز النخيلة المقتولة من الحرائق والمكتظة بالأغصان الساقطة. كانا قد تركا ووجدنا مجدداً وسلكا الدرب سائرين بلا قصد بين أشجار الصنوبر النادرة وهما يعبران الغابة. لم يكن الأعزل يعرف تلك الأمكنة وكان المساء يتصاعد بأمواج رقيقة من الضباب والغابة تتكاثف عند الأسفل في الظلام.

كان الابتعاد عن الدرب يقلقه. وحاول بعدما رأى أن الآخر يبدو وكأنه يسير على غير هدى. حاول أن ينعطف إلى اليمين حيث ربما كان الدرب يتابع خطه إلا أن الآخر انعطف هو أيضاً نحو اليمين وكان ذلك بمحض الصدفة، وإذا ما كان قد استأنف هو متابعته حسيماً كان المسير أكثر سهولة ويسيراً كان يتابعه إلى اليسار أو إلى اليمين.

قرر أن يسأله: ولكن أين مقر القيادة؟

أجابه المسلح: إننا ذاهبان إليه وستراه الآن.
ولكن في أي مكان، أي منطقة تقريباً؟
أجابه: كيف لك أن تقول ذلك؟ لا يقال إن مقر القيادة في مكان أو في منطقة
ما. أنت تفهم أن مقر القيادة هو حيث مقر القيادة.
كان يفهم، كان الأعزل رجلاً يفهم الأمور ومع ذلك فقد سألته:
– لكن أليست هناك طريق للذهاب إليه؟
أجابه الآخر: طريق أنت تفهم. إن الطريق تؤدي دائماً إلى مكان ما وأنت
تعي أن المرء لا يتوجه إلى مقر القيادة عبر الطرقات.
كان الأعزل يفهم، فقد كان رجلاً يفهم الأمور، رجلاً ذكياً.
سألته: هل تذهبون مراراً إلى مقر القيادة؟
فقال المسلح: مراراً، أذهب إليه مراراً.
كان ذا وجه حزين لا نظر فيه. يعرف القليل من الأماكن ويبدو بين الحين
والآخر وكأنه قد ضل الطريق ومع ذلك فقد كان يتابع المسير لا يأبه لشيء.
فسألته الأعزل وهو يتفحصه:
– هل لأن دورك في السخرة هذا اليوم فقد أرسلوك لاصطحابي؟ فأجابه: إن
أمر اصطحابك هو عمل أوكل إليّ. فأنا اصطحب الناس إلى مقر القيادة.
– هل تكون الساعي؟
– هو ذاك، الساعي. قال المسلح.
كان الأعزل يفكر: إنه لساع غريب هذا الذي لا يعرف الأماكن، وتابع
مفكراً: لكنه اليوم لا يريد أن يسلك الطرقات حتى لا أعرف أنا أين مكان مقر
القيادة لأنهم لا يتقون بي.
إنها علامة سيئة أنهم لا يتقون به أيضاً. واستبد به التفكير بهذا الأمر
إلا أن أماناً كان ضمن تلك العلامة السيئة وهو أنه كان يقوده حقاً إلى مقر
القيادة وأنهم سيتركونه حراً. وخارج تلك العلامة السيئة هناك علامة أسوأ
منها أيضاً ألا وهي الغابة التي كانت تتكاثر أكثر فأكثر حيث لا يستدل على
الخروج منها، وكذلك صمت وحزن ذلك الرجل المسلح.

– هل اصطحبتكم السكرتير أيضاً والأخوين صاحبي الطاحون والمعلمة الى مقر القيادة؟ سأل ذلك السؤال دفعة واحدة دون أن يفكر به لأنه السؤال الحاسم الذي كان يعني له كل شيء. فسكرتير البلدية والأخوان والمعلمة كانوا جميعهم أناساً اقتيدوا بعيداً ولم يعودوا قط، ولم يعرف عنهم أي شيء أبداً. قال المسلح: لقد كان السكرتير فاشياً، أما الأخوان فكانا من عناصر الميليشيات، والمعلمة من مساعديهم.

– كنت أقول ذلك لأعرف شيئاً على اعتبار أنهم لم يعودوا على أعقابهم ثانيةً.
فألح المسلح: قلت لك أنهم كانوا ما كانوا، وأنتم تكونون ما أنتم وليس هناك من مجال للمقارنة.

– بالتأكيد «قال الآخر» ليس هناك من مجال للمقارنة. كنت أسألك فقط عما جرى من أمرهم هكذا للفضول.

كان الأعرل يشعر أنه واثق من نفسه بشكل عظيم فقد كان الرجل الأكثر نكاءً في البلدة وكان من الصعب أن يفعلوها معه فالسكرتير والمعلمة لم يعودا ثانية. بينما هو فإنه سيعود كان سيقول للماريشال (بمزيج من الإيطالية والالمانية والفرنسية والانكليزية): «أنا أيها الرفيق العظيم. لن يستطيع الانصار أن يسحقوني. أنا سأسحقهم» وربما كان الماريشال سينفجر ضاحكاً، لكن الغابة المحروقة كانت لا نهاية لها وأفكار الرجل مطوقة بالمجهول مثل فرجة مضاءة وسط غابة ما.

– أنا لا أعرف جيداً ما جرى للسكرتير وجميع أولئك الآخرين فأنا أقوم بعمل الساعي.

فألح الأعرل: ولكنهم سيعرفون ذلك في مقر القيادة.

– هو ذاك، فلتسألهم عن ذلك في مقر القيادة. هناك يعرفون ذلك.

كان الوقت أصبح مساءً لذا كان من الضروري أن يسيرا بحذر وسط الضباب متنبهين إلى مواضع أقدامهما كي لا يتزحلقا على الأحجار المخفية تحت الأعراس الرقيقة. وأن ينتبه الرجل الأعرل إلى تقاطر الأفكار الواحدة تلو الأخرى ضمن القلق المتزايد كي لا يجد نفسه فجأة مكفناً بالخوف. لو أنهم كانوا يعتقدون أنه جاسوس فإنهم ما كانوا ليتركونه هكذا في الغابة بكل

